
www.ibtesama.com
طبعة مزيدة ومنقحة
Yousry Hassan
منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي
خالد أبو شادي
سباق نحو الجنان
كيف تجعل قلبك أسرع القلوب

طبعة مزيدة منقحة



كيف تجعل قلبك أسرع القلوب؟

د. خالد أبو شادي



الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/٢٢٣٥٦

الترقيم الدولي: I.S.B.N

978 - 977- 456 - 168 - 3

مركز السلام للتجهيز الفني

عبد الحميد عمر

٠١٠٦٩٦٢٦٤٧



الإهداء

إلى من ضَلَّ الطريق..
وَتَاهَ في الصحراء..
حتى أعْيَاهُ التعب.. وَأنْهَكَهُ العَطَش..
وبينما هو كذلك.. إذ لاحت له في الأفق رايات
أَمَّلَ فيها أسباب النجاة
وإذا بالمنادي ينادي: اركبْ معنا
ويتودد إليه مطمئنًا: لا أسألكم عليه أجرًا
وَيُلِحُّ عليه في شفقة:
إني أخاف أن يمسَّك عذابٌ من الرحمن
ويُبشِّره مردِّدًا نداء الله:
إن رغبت فينا أتَيْنَاك.. وإن ناديتنا سمعْناك
وإن عزمت على قربنا أدْنَيْنَاك...
وإن ذرفت الدمع من أجلنا فيا بُشْرَاك...
لَبِّ نداءنا... والْحَقْ بركبنا... واسْلك طريقنا...
فقد سبقك في الميدان صالح المؤمنين..
ولعلهم حَطُّوا رحالهم في الجنة منذ سنين..
فتشبَّه بهم... وَقَلِّد صنيعهم..
اغْرِسْ نخلة العزائم.. وَارْوِها بدموع نادم..
تنعم بالثمار وبالغنَائم..
هيا...أسْرع... لا تَتَوانَ...
تقدَّم نحو خَطِّ البداية... وانطلق معنا في هذه الرِّحْلَة.

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١]

أما بعد..

فقد وفقني الله تعالى لأخط كتاب «سباق نحو الجنان» وهو ثمرة مطالعات في أقوال السلف، وأفعال الصالحين، ومزجت ذلك بلطيف الشعر وشذرات الحكمة في إطار بديع يذكي الهمة، ويوقد الحماسة، ويحيي سير السلف، ويشعل روح التنافس بين شباب الأمة، وهم يرون في هذه السِّير مشاعل نور وهداية تتوهج في ظلمة الليل

فيسيرون على شعاعها وينسجون على منوالها، ويعلو صوت حادي الركب: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، ولا يهدأ لهم بال حتى تأتيهم الملائكة بالبشرى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[الزمر:٧٣].

قال الإمام أبو حنيفة: «الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحب إليَّ من كثير الفقه لأنها آداب القوم». وشاهده قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

وهـي خـلاصة تجربة ابن الجوزي التي شدَّد عليها فقال: «رأيتُ الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب إلا أن يُمزج بالرقائق والنظر في سير السلف الصالحين، وقد كان جماعة من السلف يقصدون العبد الصالح للنظر إلى سَمته وهديه لا لاقتباس علمه، وذلك أن ثمرة علمه: هديه وسَمته، فافهم هذا وامزج طلب الفقه والحديث بمطالعة سير السلف والزُهَّاد في الدنيا ليكون سببًا لرقة قلبك»(١).

وما عرضت لهذه النماذج المشرقة من أجل مصمصة الشفاه، والتحسر على مجد مضى وزال، بل من أجل الاقتداء والاهتداء ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾ [الممتحنة: ٦].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

---

(١) صيد الخاطر ص ١٢٦، ١٢٧ – ابن الجوزي – ط دار الفكر.

وقد فطرنا الله على حب التنافس، والسعي والحركة، فقال عز وجل: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤]، وقال ﷺ: «كل الناس يغدو، فبائع نفس فمعتقها أو موبقها»(١).

لكن «سباقٌ نحو الجنان» نوعٌ جديد قديم من السباق.

جديد: في زمن تنافس الناس فيه في جمع الدينار والدرهم، وتكالبوا على دنيا زائلة ومتع فانية، فثقل على هؤلاء أن يفهموا لغتنا، أو يدركوا مفاهيم سباقنا، لأن نافخ الكير تزكمه رائحة المسك، ولأن من وُلِد في الصين لا يفهم لغة العرب، فهؤلاء في وادٍ ونحن في وادٍ.

قديم: لأنه الأمر الذي أرَّق مضاجع الصالحين، وشغل فكرهم، فصاموا نهارهم، وقاموا ليلهم، وسالت دموعهم، حبًّا في الله، وطمعًا فيما عنده، وخوفًا من عقابه:

وقبل أن نتوجه إلى خط البداية لا أملك إلا أن أصف حالي وأردِّد ما سبق وردَّده الإمام الواعظ أبو المظفر محمد بن علي بن نصر الدوري:

يتوب على يدي قومٌ عصاة ... أخافتهم من الباري ذنوب

وقلبي مظلم من طول ما قد ... جنا فأنا على يد من أتوب

كأني شمعة ما بين قوم ... تضيء لهم ويحرقها اللهيب

كأني مخيط أكسو أناسًا ... وجسمي من ملابسه سليب (٢)

---

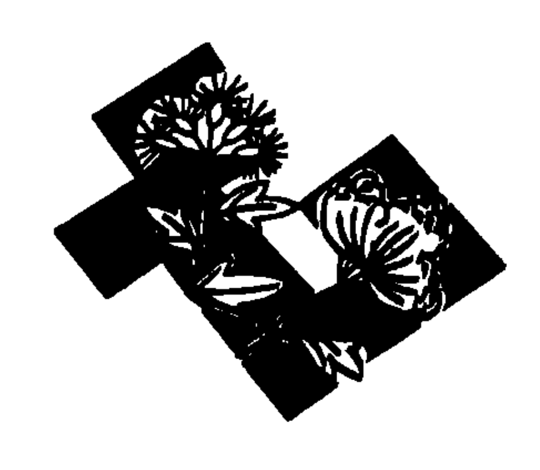
(١) رواه مسلم والترمذي وابن ماجة عن أبي مالك الأشعري كما في صحيح الجامع الصغير (ص ج ص) رقم (٣٨٥٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٧٦)- شمس الدين الذهبي- ط مؤسسة الرسالة.

من أجل ذلك يا أخي: لا تنسني بدعوة صالحة لعل الله يجمعنا معًا في مستقر رحمته، في فردوسه الأعلى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

الفقير إلى عفو ربه

د. خالد أبو شادي





الفصل الأول

مفاهيم سباقية

أولاً: معنى السباق.

ثانيًا: حكم السباق.

ثالثًا: جوائز السباق.

ومضة

قال عمر بن عبد العزيز عند دفع الناس من عرفة: «ليس السابق اليوم من سبق به بعيره، إنما السابق من غُفِر له»
[لطائف المعارف: ٤٩١].

أولاً: معنى السباق

السَّبق لغة:

«القُدْمة في الجري وفي كل شيء، تقول: له في كل أمر سُبْقة، وسابِقة، وسبَق. وفي الحديث: «**أنا سابق العرب [يعني إلى الإسلام]، وصهيب سابق الروم، وبلال سابق الحبشة، وسلمان سابق الفرس**»، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢] وأسبق القوم إلى الأمر وتسابقوا: بادروا، وسبق على قومه: علاهم كرمًا»[١].

ومرادنا بالسباق:

تسابق الخلق في أعمال الخير والطاعات سواء كانت هذه الأعمال من جنس:

أ- **العبادات**: كالصلاة والصيام وقراءة القرآن وغيرها من سائر العبادت.

ب- **المعاملات**: كصلة الرحم وبر الوالدين والإحسان إلى الجار ورعاية الأيتام.

جـ- **الأخلاق**: كالصدق والأمانة والوفاء والعدل والعفو والكرم.

---

(١) لسان العرب لابن منظور (٣/ ١٩٢٨، ١٩٢٩)- ط دار المعارف.

د- **العادات:** كطلب العلم والسعي على الرزق والنكاح إذا صاحَب هذه الأعمال نية صالحة.

وعلى هذا (فليس السباق إلى إحراز اللهو واللعب والتفاخر بسباق يليق بمن شَبُّوا عن الطوق، وتركوا عالم اللهو واللعب للأطفال والصغار! إنما السباق إلى ذلك الأفق، وإلى ذلك الهدف، وإلى ذلك الملك العريض ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [1] [الحديد: ٢١] .



(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٤٩٢)- سيد قطب- ط دار الشروق.

ثانيا: حكم السباق

حثَّ الله كل مسلم ومسلمة على خوض هذا السباق فقال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، وقال: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وقد حفلت أحاديث النبي ﷺ بنماذج عديدة من شحذ الهمم واستحثاثها للتنافس في الخيرات، ومن ذلك حثه ﷺ على التنافس في تلاوة وحفظ القرآن في قوله: **«يُقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتِّل كما كنت تُرتِّل في الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها»**(١).

وحثه على الصلاة في الصف الأول في قوله: **«لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا»**(٢).

وزيادةً منه ﷺ في التشويق وحرصًا على إثارة حمية التنافس بين أصحابه: **«كان يستغفر للصف المُقدَّم ثلاثًا وللثاني مرة»**(٣).

---

(١) رواه أحمد والترمذي وأبو داود وابن حبان عن ابن عمرو كما في (ص ج ص) رقم (٧٩٧٨).

(٢) رواه الشيخان ومالك والنسائي وأحمد عن أبي هريرة كما في (ص ج ص) رقم (٥٢١٥).

(٣) رواه أحمد وابن ماجة والحاكم عن العرباض بن سارية كما في (ص ج ص) رقم (٤٩٥٢).

فمن سبق في هذه الأعمال في الدنيا ارتقى أعلى درجات الجنة في الآخرة، ومن تأخر عنها في الدنيا حتى وإن دخل الجنة سكن أدنى درجاتها، واحدة بواحدة، وسلعة بسلعة. قال ﷺ: **«احضروا الجمعة وادنوا من الإمام، فإن الرجل لا يزال يتباعد حتى يؤخر في الجنة وإن دخلها»**[(١)].

وقد كان النبي ﷺ يبعث هذه الروح- روح التنافس- بين أصحابه، فتشتعل شرارة العزم لتحرق مخزون الكسل ويبزغ فجر العمل.

من ذلك أنه سأل أصحابه يومًا: **«من أصبح منكم اليوم صائمًا»**؟ قال أبو بكر: أنا، قال: **«من اتبع منكم اليوم جنازة»** قال أبو بكر: أنا، قال: **«فمن عاد منكم اليوم مريضًا؟»** قال أبو بكر: أنا، فقال الرسول ﷺ: **«ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة»**[(٢)].

ترى بأي حال عاد صحابة رسول الله ﷺ إلى بيوتهم بعد سماع هذه البشارة؟ لابد أنهم عادوا بعزم جديد وسعي حثيث، يبغون به إدراك ما أدرك **أبو بكر** واغتنام ما اغتنم، وكانت هذه الأسئلة المباركة شارة البدء وبداية انطلاق التسابق في حرث الآخرة دون تسويف أو تؤدة، لأن **«التؤدة في كل شيء خير إلا في عمل الآخرة»**[(٣)].

ومن ذلك: ما فعله النبي ﷺ يوم خيبر حين أوقد شعلة العزم بين أصحابه بأن قال: **«لأُعطين هذه الراية رجلاً يُحب الله ورسوله يفتح الله على يديه»**، فتحمَّس الصحابة واشرأبت أعناقهم طمعًا في نيل هذا الأجر العظيم حتى رأينا **عمر بن الخطاب** ﷺ يقول: ما

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والحاكم في المستدرك عن سمرة كما في (ص ج ص) رقم (١٩٨).
(٢) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة رقم (١٢).
(٣) رواه أبو داود والحاكم عن سعد كما في (ص ج ص) رقم (٣٠٠٩).

أحببتُ الإمارة إلا يومئذٍ قائلاً: فتساورتُ لها رجاء أن أُدعى لها. قال: فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فأعطاه إياها[١].

جزاء المتخلفين

يقول الإمام ابن القيم: «**والمتخلِّف في ظل الشجرة نائم، فوالله ما كان إلا قليل حتى ذوت أغصان تلك الشجرة، وتساقطت أوراقها، وانقطع ثمرها، ويبست فروعها، وانقطع مشربها، فقلعها قَيِّمها من أصلها فأصبح أهلها في حَرِّ السموم يتقلبون، وعلى ما فاتهم من العيش في ظلها يتحسَّرون، أحرقها قيِّمها فصارت هي وما حولها نارًا تلَظًّى، وأحاطت النار بمن تحتها، فلم يستطِع أحد منهم الخروج منها**»[٢].

ثم سألوا عن المشتركين في السباق فقيل لهم:

«ارفعوا أبصاركم تروا منازلهم، فرأوهم وهم من البُعد في قصور مدينة الملك، وغرفها يتمتعون بأنواع اللذات، فتضاعف عليهم الحسرات ألا يكونوا معهم، وزاد تضاعفها بأن حيل بينهم وبين ما يشتهون، وقيل: هذا جزاء المتخلفين ﴿**وَمَا ظَلَمْنَهُمْ وَلَكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾[النحل: ١١٨]»[٣].

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة كما في صحيح مسلم رقم (٢٤٠٥). ومعنى تساورت: تطاولت لها وحرصتُ عليها بأن أظهرت وجهي وتصدَّيت لذلك ليتذكرني.

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص ٢٠٢- ابن قيم الجوزية- ط دار إحياء الكتب العربية.

(٣) السابق ص ٢٤٣.

ثالثًا: جوائز السباق

وسباقنا هذا يتم توزيع الجوائز فيه على:

الفائز الأول: وهو من يدخل الجنة بغير حساب. عن أبي أمامة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا لا حساب عليهم ولا عذاب، مع كل ألف سبعون ألفًا وثلاث حثيات من حثيات ربي**»[1].

ففي غرة من يدخلون الجنة بغير حساب (٧٠ ألفًا)، هؤلاء هم الذين حَجَز مقعده معهم عكاشة بن محصن الأسدي لما سمع هذه البشرى قال: يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلني منهم، فقال: «**اللهم اجعله منهم**»[2].

ولكن بعض من آيسهم الشيطان من رحمة الله وعلمهم فن التثاؤب (عندما يعلمون أن العدد محدود يظنون أن السباق قد انتهى منذ زمن حيث العصور المباركة من الصحابة والتابعين، ولكن الحقيقة غير ذلك!! ذلك أن رسول الله ﷺ لم يحدِّد مجموعة بعينها ولم يحدد زمانًا بعينه، إنما بشَّر بها أحدهم وعندما قام آخر يطلب ذلك ردَّ عليه: «**سبقك بها عكاشة**»، ولو لم يقل ذلك لكان كل من حضر وكل من سمع يريد الحصول على ما حصل عليه عكاشة، ولانتهى العدد المحدود منذ زمن بعيد)[3]، ولكن الرسول ﷺ تركها مفتوحة ليشمر

---

(١) رواه الإمام أحمد كما في (ص ج ص) رقم (٦٩٨٨) وتخريج المشكاة رقم (٥٥٥٦).
(٢) رواه البخاري رقم (٦٥٤١)، فتح الباري (١١/ ٤١٣)- ط- دار الريان.
(٣) واحات الإيمان (٢/ ١٣٣، ١٣٤)- عبد الحميد البلالي- ط دار الوفاء.

أصحاب الهمم والعزائم عن ساعد الجد ويتسابقوا لعلهم يلحقون بعكاشة دون كلل أو ملل أو يأس أو قنوط، (ولا تستصعب طريقهم فالمعين قادر، تعرَّض لمن أعطاهم، وسل فمولاك مولاهم، رُبَّ كنز وقع به فقير، ورُبَّ فضل فاز به صغير، علم الخضر ما خفي عن موسى، وكُشِف لسليمان ما غُطِّي عن داود)[1].

هكذا كان عبد الله بن ثوب التابعي الجليل المعروف باسم أبي مسلم الخولاني إذ قال: «أيظن أصحاب محمد أن يستأثروا به دوننا؟ كلا والله لنزاحمنهم عليه زحامًا حتى يعلموا أنهم قد خلَّفوا وراءهم رجالاً»[2]، يريد بذلك أن يزاحم بكتفيه وساعديه قافلة عكاشة، فيا ترى هل خلف أسلافنا وراءهم رجالاً أم.....؟!!

فإذا أردت أن تكون في قافلة عكاشة فاعزم عزمة أبي مسلم وادفع رسوم الاشتراك واشترك معنا في هذا السباق **«سباق نحو الجنان»**.

ولكن رحمة الله أوسع من أن يدخل الجنة (٧٠,٠٠٠) سبعون ألفًا فقط بغير حساب، فيدخل مع كل ألف من ركب عكاشة ٧٠,٠٠٠ أي يضاف إلى العدد ٤,٩٠٠,٠٠٠، ويتسع له رحمة الله لتشمل القاصي والداني، فينضم للآلاف السابقة الفائزة ثلاث حثيات من حثيات ربي، (والمعنى أن الله يخرج من النار خلقًا كثيرًا لا يأخذهم عد، ولا يدخلون تحت حصر، فيخرجون دفعة واحدة بغير شفاعة

---

(١) المدهش ص ٤٢٨- ابن الجوزي- تحقيق د. مروان قباني- ط دار الكتب العلمية.

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٤١١).

أحد ولا ترتيب خروج، بل كما يُلقي القابض الشيء المقبوض عليه من يده في مرة واحدة فعبَّر عن ذلك بالحثوة)[١].

الفائز الثاني: أن يحاسب حسابًا يسيرًا، أو هو العرض كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «قال رسول ﷺ: «من حوسب يوم القيامة عُذِّب» قالت عائشة: أو ليس يقول الله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]، قال: ليس ذلك بالحساب إنما ذلك العرض»[٢].

عرض: يخلو بهم فيه الله فيعاتبهم حتى يذوقوا وبال الحياء ويتصببوا عرقًا بين يديه، ويفيض العرق منهم على أقدامهم من شدة حيائهم، ثم يغفر لهم ويرضى عنهم، ويبين هذا حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- في الصحيحين قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى يدني المؤمن فيضع عليه كنفه وستره من الناس ويقرره بذنوبه فيقول: تعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب. حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يُعطى كتاب حسناته بيمينه، وأما الكافر والمنافق فيُنادى على رءوس الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم»[٣].

---

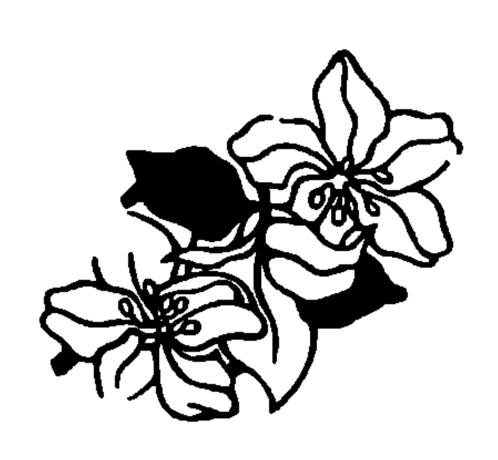
(١) التذكرة في أحوال الموتى والآخرة ص (٤٣٧)- القرطبي- ط مكتبة الدعوة.
ومعنى الحثوة: الغَرْفة من التراب ونحوه.

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي عن عائشة كما في (ص ج ص) رقم (٦٠٩٦).

(٣) رواه الشيخان وأحمد والنسائي وابن ماجة عن ابن عمر كما في (ص ج ص) رقم (١٨٩٠).

وعن عائشة- رضي الله عنها-: سمعت النبي ﷺ يقول في بعض صلاته: «اللهم حاسبنا حسابًا يسيرًا» فلما انصرف قلت: يا نبي الله، وما الحساب اليسير؟ قال: «أن ينظر الله في كتابه فيتجاوز عنه»(١).

أما من جاء بعد ذلك فهو المناقش بالحساب، وقد قال رسول الله ﷺ: «من نوقش الحساب هلك»(٢)، فهو في النار يعض أصابع الندم لتخلفه عن سباقنا وقعوده مع الكسالى والخاملين.



(١) رواه أحمد في باقي مسند الأنصار رقم (٢٣٠٨٢)، وأخرجه البخاري في العلم رقم (١٠٠).

(٢) رواه الطبراني عن ابن الزبير وأحمد والحاكم عن عائشة في (ص ج ص) رقم (٦٤٥٥).

الفصل الثاني

قبل الانطلاق

أولاً: اضبط ساعتك.

ثانيًا: السير سير القلب.

ثالثًا: أبواب الخير مفتوحة.

رابعًا: لا تكن شعبانيًا.

ومضة

قال الحسن البصري: «يا ابن آدم: نهارك ضيفك فأحسن إليه، فإنك إن أحسنت إليه ارتحل بحمدك، وإن أسأت إليه ارتحل بذمِّك، وكذلك ليلك»

[البيان والتبيين ٣/ ٨٣].





أولاً: اضبط ساعتك

قبل أن نبدأ السباق على كل متسابق أن يضبط ساعته، وأن يحرص على وقته، فالدقيقة في هذا السباق لها ثمن بل اللحظة، فكل لحظة نعيشها هي أمل كبير في الفوز، وربما خسرتَ السباق بفارق لحظة واحدة فلا تضيِّعها فتندم يوم لا ينفع الندم.. ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

لحظة من فضلك

يقول محمد إقبال:

لحظة يا صاحبي إن تغفل ... ألف ميل زاد بعد المنزل

رام نقش الشوك حينًا رجل ... فاختفى عن ناظريه المحمل

وقصة هذا الشعر:

«إن إنسانًا كان تائهًا في مغارة يمشي على قدميه، فشهد على بعد منه محملاً أمّل فيه أسباب النجاة فأسرع متعجلاً يدركه حافيًا، وأصاب الشوك قدميه فصرف بصره عن المحمل لحظة لينزع الشوك من قدمه فغاب عنه المحمل، ومات ولبسته الحسرات»[1].

(١) ديوان الرموز والأسرار لإقبال، نقلاً عن رسالة المسترشدين ص ١١٥- تحقيق العلامة أبي غدة- ط دار السلام.

فانظر يا أخي إلى الوقت الذي صرفه صاحب القصة للنظر إلى الشوك كيف أثر في حياته حتى اختفى عنه المحمل، فكيف بمن ضيَّع وقته في النظر إلى أشواك الدنيا، فكم يا ترى سيضيع من حياته!! حتى تختفي يوم القيامة عن ناظريه الجنة!!!

يا مضيِّع النخيل

يوضح ذلك ابن الجوزي في وصية من وصاياه الثمينة التي حوتها رسالته القيمة (رسالة إلى ولدي) والتي أوصى بها ابنه أبا القاسم بدر الدين قائلاً له:

«واعلم أن الأيام تبسط ساعات، والساعات تبسط أنفاسًا، وكل نفس خزانة، فاحذر أن يذهب نفس بغير شيء فترى يوم القيامة خزانة فارغة فتندم، فإن في الصحيح عن رسول الله ﷺ: **«من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة»**[1]، فانظر إلى مضيِّع الساعات كم يفوته من النخيل»[2].

الوقت هو الحياة

بلغ حرص السلف على أوقاتهم مبلغًا عجيبًا، وكانوا أعرف الناس بقيمتها، وكانوا يقولون: من علامات المقت إضاعة الوقت، ويقولون: الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك، وكانوا يحاولون دائمًا

(١) رواه الترمذي وابن حبان والحاكم عن جابر كما (ص ج ص) رقم (٦٣٠٥).

(٢) رسالة إلى ولدي ص (٢٧،٢٨)- ابن الجوزي- ط دار السلام.

الترقي من حال إلى حال أحسن منها بحيث يكون يوم أحدهم أفضل من أمسه، وغده أفضل من يومه، ويقولون في هذا: «من كان يومه مثل أمسه فهو مغبون، ومن كان يومه شرًّا من أمسه فهو ملعون، ومن لم يتعاهد النقصان من نفسه فهو في نقصان، ومن كان في نقصان فالموت خيرٌ له»[١].

يقول الحسن البصري: «ابن آدم أنت أيام فإذا ذهب يوم ذهب بعضك، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكُل، وأنت تعلم فاعمل»[٢].

وكان بشر بن الحارث الحافي كثيرًا ما يقول: «أمس قد مات، واليوم في النزع، وغد لم يولد فبادر بالأعمال الصالحة»[٣]. وتتغير الألفاظ لكن معانيها تبقى كما هي فيقول: «الليل والنهار حثيثان يعملان فيك، فاعمل فيهما»[٤].

نماذج مدهشة

كان أبو بكر بن عياش يقول: «لو سقط من أحدهم درهم لظل يومه يقول: إنا لله، ذهب درهمي، وهو يذهب عمره ولا يقول: ذهب عمري، وقد كان لله أقوام يبادرون الأوقات، ويحفظون الساعات، ويلازمونها بالطاعات»[٥].

---

(١) حلية الأولياء (٨/ ٣٥)- أبو نعيم الأصفهاني- ط دار الكتاب العلمي.
(٢) السابق (٢/ ١٤٨).
(٣) بشر بن الحارث ص (٥٦)- د. عبد الحليم محمود- ط دار المعارف.
(٤) السابق ص (٥٧).
(٥) الياقوتة لابن الجوزي ص (٥٨)- ط دار الفضيلة.

ومن أجل هذا أنجزوا الأعمال العظيمة في أعمار قصيرة، فهذا الإمام أبو زكريا بن شرف الدين النووي يموت في الخامسة والأربعين من عمره (٦٣١- ٦٧٦ هـ) ويترك من المؤلفات ما قسموه بعد موته على أيام حياته فكان نصيب كل يوم أربع كراريس. فكيف تم له ذلك؟ اسمع منه يجبك: «وبقيتُ سنتين لم أضع جنبي على الأرض». ينام على الكتاب ونحن ننام على نهاية الإرسال!!

قال الخطيب البغدادي: سمعت علي بن عبيد الله بن عبد الغفار اللغوي يحكي أن محمدًا بن جرير الطبري المتوفى عام ٣١٠ هـ عن ثلاث وثمانين مكث أربعين سنة يكتب كل يوم أربعين ورقة. أي أنه- رحمه الله- كتب ما يقرب من ٥٨٤٠٠٠ أربعة وثمانين وخمسمائة ألف ورقة. إن المرء ليقف مشدوهًا أمام هذا الرقم الذي لا يعرف لعالم في تاريخ البشرية بيد أنك إذا علمت ما كان عليه من حرص على لحظات عمره حتى في لحظات احتضاره ما تعجبت.

وبلغ الإمام أبو الوفاء على بن عقيل الحنبلي البغدادي المتوفى سنة ٥١٣هـ في محافظته على الزمن مبلغًا أثمر أكبر كتاب عرف في الدنيا هو كتاب (الفنون) والذي يقع في ٨٠٠ مجلد.

وقد يسبق التلميذ أستاذه، فهذا الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن على ابن محمد بن الجوزي تلميذ ابن عقيل المتوفى سنة (٥٩٧هـ) يقول:

«كتبت بأصَبعيَّ هاتين ألفي مجلد، وتاب على يدي مائه ألف، وأسلم على يدي عشرون ألف يهودي ونصراني»، وقال أيضًا: «لو قلت إني قد طالعت عشرين ألف مجلد، كان أكثر وأنا بعد في

الطلب»، وقال عنه صاحب كتاب (الكنى والألقاب):

«إن براية أقلام ابن الجوزي التي كتب بها الحديث جمعت فحصل منها شيء كثير فأوصى أن يسخن بها الماء الذي يُغسَّل به بعد موته ففعل فكفت وفضل منها».

ومعنا في سباقنا متسابق طلَّق الراحة ثلاثًا ولا يرضى بالمحلل، كيف وقد سمع حديث رسول الله ﷺ: «لعن الله المحلِّل والمحلَّل له». ذلك هو شيخ الطب في زمانه ابن النفيس- رحمه الله- والذي يقول عنه التاج السبكي: «وصف كتابًا سماه الشامل، لو تم لكان ثلاثمائة مجلد، تم منه ثمانون مجلدًا وكان فيما يذكر على تصانيفه من ذهنه». فكيف تم له ذلك؟

كان رحمه الله إذا أراد التصنيف توضع له الأقلام مبرية ويدير وجهه إلى الحائط، ويأخذ في التصنيف إملاء من خاطره، ويكتب مثل السيل إذا انحدر، فإذا كلَّ القلم وخفى رمى به وتناول غيره لئلا يضيع عليه الزمن في بري الأقلام.

ويأتينا خبر الإمام سليم بن أيوب الداري أحد كبار أئمة المذهب الشافعي المتوفى سنة ٤٤٧هـ يحاسب على الأنفاس أن تضيع دون فائدة، إما ينسخ، وإما يدرس، أو يقرأ، فينسخ شيئًا كثيرًا، ولقد حدثني عنه شيخنا أبو الفرج الإسفراييني- وهو أحد تلامذته- أنه نزل يومًا إلى داره ورجع، فقال: قد قرأت جزءًا في طريقي.

قال: وحدثني المؤمل بن الحسن أنه رأى سليمًا خفي عليه القلم (لم يعد يصلح للكتابة) فإلى أن قطَّه (براه) جعل يحرك شفتيه، فعلم أنه يقرأ بإزاء إصلاحه القلم لئلا يمضي عليه زمان وهو فارغ.

ثانيا: السير سير القلب

ليس الاعتبار في سباقنا بِكَمِّ أعمال البر فحسب، وإنما الاعتبار بلين القلوب وتقواها وتطهيرها من الآثام، سير الدنيا يُقطع بسير الأبدان، وسير الآخر يقطع بسير القلوب.

جاء رجل إلى الزاهد أبي علي الدقاق يشتاق إلى مواعظه فقال: قد قطعت إليك مسافة. فقال: «ليس هذا الأمر بقطع المسافات، فارق نفسك بخطوة، يوصلك إلى مقصودك»[(١)].

انظر معي إلى قاتل المائة نفس (فهذا رجل لما مشى بقلبه إلى الله، حسبت له الخطوة الواحدة بل الشبر الواحد، ولو أنه طوَّف بقدميه، ولم يكن له ذلك القلب، لكان كالعظام المحمولة في نعشه، قبرها في المشرق هو قبرها في المغرب، وليس لها من الأرض، ولا للأرض منها إلا معنى واحد لا يتغير؛ هو أنه بجملته ميت، وأنها بجملتها حفرة)[(٢)].

سير القلوب أبلغ من سير الأبدان، فكم من واصل ببدنه إلى البيت، وقلبه منقطع عن رب البيت، وكم من قاعد على فراشه في بيته وقلبه متصل بالملأ الأعلى.

جسمي معي غير أن الروح عندكم
فالجسم في غربة والروح في وطن

(فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل

---

(١) المدهش ص (١٧٩).

(٢) وحي القلم للرافعي (١/ ٢٨٣)- ط دار الكتاب العلمي.

بتفاضل ما في القلوب، فتكون صورة العمل واحدة وبينهما في التفاضل كما بين السماء والأرض)[١].

قال ﷺ: «إن أكثر شهداء أمتي أصحاب الفُرُش، ورُبَّ قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته»[٢].

سبحان الله! الشهادة: بلغها متسابق بقلبه مع موته على فراشه، وما نالها من فصل رأسه عن جسده في ميدان القتال، فمن الذي رفع هذا ووضع ذاك؟ إنه سير القلب.

عبد الله بن ثابت رضي الله عنه كان من «أصحاب الفرش» لما مات قالت ابنته: والله إن كنت لأرجو أن تكون شهيدًا، فإنك كنت قد أتممت جهازك (أتممت ما تحتاج إليه في سفرك للغزو)، فقال رسول الله ﷺ: **«إن الله أوقع أجره على قدر نيته»**[٣].

أما قزمان الظفري فكان «قتيلاً بين الصفين»، خرج قزمان مع النبي ﷺ في غزوة أحد فأبلى بلاء حسنًا، وكان لا يدع للكفار شاذَّةً ولا فاذَّةً إلا أتبعها يضربها بسيفه، حتى قال بعض الصحابة: ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان، فقال النبي ﷺ: **«إنه من أهل النار»**[٤]،

---

(١) تهذيب مدارك السالكين ص (١٨٨)- عبد المنعم صالح- ط دار التوزيع والنشر الإسلامية.

(٢) رواه أحمد عن ابن مسعود كما في الجامع الصغير رقم (٢٢١٨)، وهو حديث مرسل فيه ابن لهيعة وبقية رجاله ثقات.

(٣) رواه أبو داود والنسائي وأحمد وابن ماجة عن جابر بن عتيك كما في (ص ج ص) رقم (١٧٨٧).

(٤) القصة من غير تسمية الرجل عند البخاري في الجهاد رقم (٢٨٩٨)، وتسميته قزمان في سيرة ابن هشام.

فتتبعه صحابي آخر فرآه قد أصيب فهنأه بالشهادة وبشره، فقال: بم تبشرون؟ والله ما قاتلت إلا عن أحساب قومي، ولولا ذلك ما قاتلت، ثم أخرج سهمًا من كنانته فقتل به نفسه، فمات كافرًا.

حديث للحفظ

لأهمية سير القلب وضع لنا النبي ﷺ هذا العنوان وقال: **«وأُحدِّثكم حديثًا فاحفظوه: إنما الدنيا لأربع: عبد رزقه الله مالاً وعلمًا فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقًّا، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته، فأجرهما سواء، .....»**[1].

سير القلب هو سير أصحاب رسول الله ﷺ ذوي الأعذار في غزوة تبوك الذين قال عنهم النبي ﷺ: **«إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا، ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم واديًا، إلا كانوا معكم فيه وهم بالمدينة، حبسهم العذر»**[2].

يا سائرين إلى البيت العتيق لقد ... سرتم جسومًا وسرنا نحن أرواحا

إنا أقمنا على عذرٍ وقد رحلوا ... ومن أقام على عذر فقد راحا

فلا تكونن (في غفلة عن هذا الإكسير الكيماوي الذي إذا وضع منه مثقال ذرة على قناطير من نحاس الأعمال قلبها ذهبا)[3].

---

(١) رواه أحمد والترمذي عن أبي كبشة الأنماري كما في صحيح تخريج المشكاة رقم (٥٢٨٧). وكان ابن تيمية يقول: «وحديث أبي كبشة في النيات مثل حديث البطاقة في الكلمات». مجموع الفتاوى (١٠/ ٧٣٤)

(٢) رواه البخاري في كتاب الجهاد عن أنس رقم (٢٦٢٧).

(٣) تهذيب مدارج السالكين ص ١٨٨.

ثالثا: أبواب الخير مفتوحة

سبحان من تفضَّل على هذه الأمة ومنحها على يد نبيها نبي الرحمة أبواب الفضائل الجمة، فما من عمل عظيم يقوم به قوم ويعجز عنه آخرون إلا وجعل الله لهم عملاً يساويه أو يفضل عليه، فلا يبقى لمتخلف عذر.

إن كنت فقيرًا لا تجد ما تنفقه في سبيل الله، ووجدت الأغنياء ينفقون فقد سبقك إلى ذلك صحابة رسول الله قالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، فقال لهم النبي ﷺ: **«أو ليس قد جعل الله لكم ما تتصدقون؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة»**[١].

ووعى **أبو الدرداء** ﷺ الدرس فأجاب لما سأله أحد أصحابه: أعتق مائة نسمة؟ أجاب: «إن مائة نسمة من مال رجل كثير، وأفضل من ذلك إيمان ملزوم بالعمل بالليل والنهار، وأن لا يزال لسان أحدكم رطبًا بذكر الله عز وجل»[٢] وعنه ﷺ أنه قال: «لأن أقول لا إله إلا الله والله أكبر مرة أحب إليَّ من أن أتصدق بمائة دينار»[٣].

---

(١) رواه مسلم عن أبي ذر رقم (١٦٧٤).

(٢) لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي ص (٤٩٧)- ط مطابع الأهرام.

(٣) السَّابق ص (٤٩٧).

ولما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام ولا قدرة للضعيف عليه فإن الله فتح لك بابًا يعادله: كان الصحابة إذا تخلفوا عن غزو ونحوه بعذر إما أن يخرج مكانه رجلاً من ماله، وإما أن يعين غازيًا، وإما أن يخلفه في أهله لأن **«من جهَّز غازيًا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيًا في سبيل الله في أهله بخير فقد غزا»**(١).

فإن لم تكن ذا مال تعين به غازيًا فتح الله لك بابًا آخر يساويه بل يفضل عليه فكان العمل في عشر ذي الحجة لا يفضل عليه عمل إلا من خرج بنفسه وماله ولم يرجع منهما بشيء. فعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله عز وجل من هذه الأيام، يعني الأيام العشر»**. قالوا: يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله، قال: **«ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع بشيء من ذلك»**(٢).

ولما كان الحج أفضل الأعمال وكان كثير من الناس يعجزون عنه لقلة مال أو ضعف صحة فإن الله عوضهم عن ذلك ببشرى ساقها نبي الرحمة للعاجز عن التطوع بالحج فقال ﷺ: **«من صلى الصبح في جماعة، ثم جلس في مُصلاه يذكر الله حتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين، كان مثل أجر حجة وعمرة تامة تامة تامة»**(٣).

فإن أضعت هذه الفرصة واعتدت النوم بعد الفجر فلك أجر حجة تامة إن سلكت طريق **«من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم**

---

(١) رواه الشيخان وأحمد عن زيد بن خالد كما في (ص ج ص) رقم (٦٠٦٩).
(٢) رواه الجماعة إلا مسلم والنسائي واللفظ لأحمد كما في (ص ج ص) رقم (٥٤٢٤).
(٣) رواه الترمذي عن أنس كما في (ص ج ص) رقم (٦٢٢٢).

خيرًا، أو يُعلِّمه كان كأجر حاج تامًّا حجته»[١].

شهود الجمعة يعدل حجة التطوع، قال سعيد بن المسيب: «هذا أحب إليّ من حجة نافلة»[٢]، وقد جعل النبي ﷺ المبكر إلى الجمعة كالمهدي هديًا إلى البيت الحرام، فعن أبي هريرة ﷺ: قال رسول الله ﷺ: **«من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة «أي كغسل الجنابة»، ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة (ناقة)»** [٣].

وقال الحسن: مشيك في حاجة أخيك المسلم خير لك من حجة، وقال أبو هريرة ﷺ: بكورك إلى المسجد أحب إلينا من غزوتنا مع رسول الله ﷺ.

أخي المتسابق:

رحمة الله واسعة وأبواب الخير كثيرة، إذا وجدت أحد الأبواب مغلقًا فقد فتح لك أبوابًا، وإذا ضاقت بك سبيل وسعتك سبل، فافتح هذه الأبواب وواصل السير وأنت تردد: «باسم الله ولجنا» حتى تصل، ففي نهاية هذه الأبواب ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التوبة: ٧٢].

---

(١) رواه الطبراني عن أبي أمامة كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم (٨٢).
(٢) لطائف المعارف ص (٥٠٢).
(٣) رواه الجماعة إلا ابن ماجة عن أبي هريرة كما في (ص ج ص) رقم (٥٩٣٩).

رابعًا: لا تكن شعبانيًا

سُئل الشبلي: أيهما أفضل رجب أم شعبان؟ فقال: «كن ربانيًا ولا تكن شعبانيًا»[1]، يقرع بها أسماع من عبد الله على حرف فعرفه في شعبان ونساه طوال العام، وسالت دموعه في رمضان وأجدبت في غير رمضان.

لما قيل لبشر بن الحارث الحافي: إن قومًا يتعبدون ويجتهدون. فقال: بئس القوم لا يعرفون الله حقًّا إلا في شهر رمضان. ويضع النقاط على الحروف فيقول: إن الصالح الذي يعبد ويجتهد السنة كلها.

أين حال هؤلاء الحمقى من قوم كان الدهر كله رمضان؟ ليلهم قيام، ونهارهم صيام، ابتاع قوم من السلف جارية، فلما قرب شهر رمضان رأتهم يتأهبون له بما لذَّ وطاب من الطعام والشراب. فسألتهم فقالوا: نتهيأ لصيام رمضان، فقالت: وأنتم لا تصومون إلا رمضان؟!!. لقد كنت عند قومٍ كان كل زمانهم رمضان... ردوني عليهم.

ابتاع أبو عبد الله الحسن بن صالح جارية له، فلما انتصف الليل قامت فنادت: يا أهل الديار.. الصلاة... الصلاة، قالوا: أطلع الفجر؟ قالت: وأنتم لا تصلون إلا المكتوبة؟!!. ثم جاءت الحسن وقالت: لقد بعتني لقوم سوء لا يصلون إلا المكتوبة.. ردني.. ردني... ردني.

---

(١) لطائف المعارف ص (٤٥٠).

كان الرسول ﷺ عمله دِيْمَة، ولما سئلت السيدة عائشة - رضي الله عنها -:

«هل كان النبي ﷺ يخص يومًا من القيام؟ فقالت: لا، كان عمله دِيْمَة»[1].

فعلى خطى رسول الله ﷺ سِرْ، وكن على عمل دائم حتى ينتهي سباقك، ويأتيك أجلك، قال الحسن: إن الله لم يجعل لعمل المؤمن أجلاً دون الموت، ثم قرأ: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

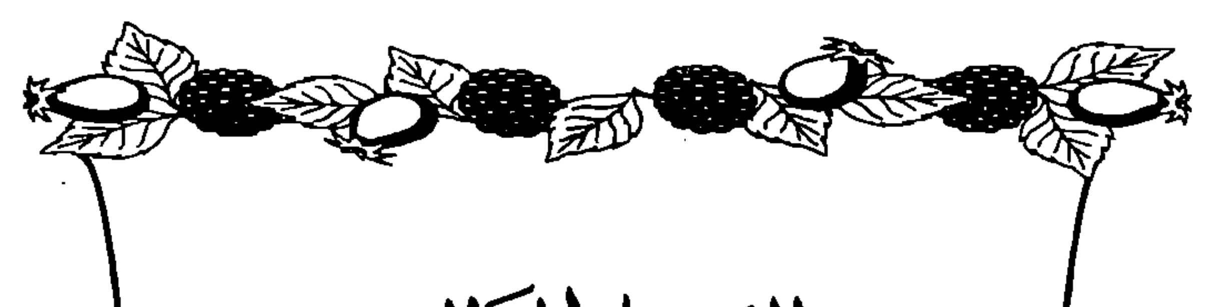
كل وقت تقضيه في غير طاعة مولاك فقد خسرته، وساعة تغفل عن ذكر الله تكون عليك حسرة يوم القيامة، فوا أسفاه على زمان انقضى في غير طاعته، وواحسرتاه على قلب عاش في غير خدمته.

وإليك القول على لسان ابن رجب الحنبلي:

«هذه الشهور والأعوام والليالي والأيام كلها مقادير الآجال، ومواقيت الأعمال، ثم تنقضي سريعًا، وتمضي بعيدًا، والذي أوجدها وابتدعها وخصها بالفضائل باقٍ لا يزول، ودائمٌ لا يحول، هو في جميع الأوقات إله واحد، ولأعمال عباده رقيب مشاهد»[2].



(١) رواه البخاري رقم (٥٩٨٥)، ومسلم رقم (١٣٠٤)، والديمة: المطر الدائم في سكون، شبهت عمله في يومه مع الاقتصاد بديمة المطر.
(٢) لطائف المعارف ص (٤٥٢).



الفصل الثالث

رسوم الاشتراك

أولاً: قلب لا يعرف الغضبان.

ثانيًا: قلب لا يصاد بالطُّعْم.

ثالثًا: قلب دائم الثأر.

رابعًا: قلب لا يعرف التثاؤب.

ومضة

قال ابن القيم: «اشتر نفسك اليوم، فإن السوق قائمة، والثمن موجود، والبضائع رخيصة، وسيأتي على تلك السوق والبضائع يومٌ لا تصل فيه إلى قليل ولا كثير»[الفوائد- ٦٤].

أولا: قلب لا يعرف القضبان[1]

هذه أول شروطنا وأهمها، فلا بد للقلب الذي يشترك في سباقنا أن يكون حرًّا طليقًا، ولا يعرف أسر المادة أو قضبان الشهوة، أما القلب المحبوس خلف الأسوار فأنّى له أن يقوم وهو مُكبَّل، وأنى له أن يتسابق وهو مُقيَّد، فالسباق والأسر لا يجتمعان.

فمن كان قلبه أسيرًا لشيء من الدنيا قيَّده عن الحركة ومنعه من الانطلاق لإحراز الغاية وبلوغ خط النهاية، سواء كان الآسر له تجارة أو امرأة أو لهوًا أو منصبًا، والعاقل ينظر إلى حقيقة الأشياء وجوهرها لا إلى مظهرها.

واقرأ بقلب نقي قول الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

زُيِّنَ: نعم.. فالدنيا زينة... مظهر.. متاع زائل، والاقتراب يفضح الصورة ويبين أن ما ظنته النفس حقيقة ليس إلا خيالاً ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤]، هذه هي الحقيقة الراسخة، والله عنده النعيم الدائم واللذة الباقية، فالخاسر من آثر

---

(١) اقتبست عناوين هذا الفصل من كتاب الوقت عمار أو دمار لجاسم المطوع- ط دار الوفاء، فوجب نسب الخير إلى أهله. قال الإمام الشافعي: «الحرُّ من راعى وداد لحظة، وانتمى لمن أفاده لفظة»، لذا وجب التنويه.

الفاني على الباقي، والرخيص على النفيس.

هذه الشهوات هي الحبة داخل الفخ، يراها الطائر ولا يرى الفخ لغلبة شهوة الحبة على قلبه، وتعلق باله بها، وجهله بما جعلت فيه فإن لم يتنبه هلك، وإن تيقَّظ نجا، فكن كيِّسًا فطنًا كما أرادك رسول الله ﷺ، ولا تقع في الفخ فتُشوى في جهنم، وتذكر قول الحبيب ﷺ: «**حُفَّت الجنة بالمكاره، وَحُفَّت النار بالشهوات**»[1].

عثمان بن عفان ؓ خلع هذه القضبان، ورمى بها بعيدًا، ولم يكتف بذلك بل هو الذي طوَّق شهوته بأغلال بذله وجوده حتى خرَّت شهوته راكعة تحت قدميه ترسف في القيود، قال أبو هريرة ؓ: «**اشترى عثمان الجنة من النبي ﷺ مرتين حين حفر بئر رومة، وحين جهَّز جيش العسرة**»[2]، ولهذا قلَّده الرسول ﷺ وسام (**عثمان في الجنة**)[3].

أما من خالف نهج الخليفة الثالث في تحطيم القضبان فسيشكو العلل والأمراض ومنها وليس آخرها فقدان حلاوة الطاعة.

معنا في حلبة السباق طبيب بارع هو بشر بن الحارث شخَّص هذا المرض فقال يصف الداء والدواء معًا: «**لا يجد العبد حلاوة العبادة حتى يجعل بينه وبين الشهوات حائطًا من حديد**»[4].

والآن إليك البحث الميداني الذي أجراه العلامة ابن القيم وخرج منه إلى أن: «**الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة،**

---

(١) رواه مسلم والترمذي عن أنس كما في (ص ج ص) رقم (٣١٤٢).

(٢) صفحات مشرقة من حياة السابقين ص ٣٤٣- جمع وإعداد نذير محمد- ط دار البشائر.

(٣) رواه ابن عساكر عن جابر كما في (ص ج ص) رقم (٣٨٧٤).

(٤) حلية الأولياء (٨/٣٤٥).

فإنها إما أن توجب ألمًا وعقوبة، وإما أن نقطع لذة أكمل منها، وإما أن تضيع وقتًا إضاعته حسرة وندامة، وإما أن تثلم عرضًا توفيره أنفع للعبد من ثلمه، وإما أن تذهب مالاً بقاؤه خير له من ذهابه، وإما أن تضع قدرًا وجاهًا قيامه خير من وضعه، وإما أن تسلب نعمة بقاؤها ألذ وأطيب من قضاء الشهوة، وإما أن تطرق لوضيع إليك طريقًا لم يكن يجدها قبل ذلك، وإما أن تجلب همًّا وغمًّا وحزنًا وخوفًا لا يقارب لذة الشهوة، وإما أن تُنسي علمًا ذكره ألذ من نيل الشهوة، وإما أن تشمت عدوًّا وتحزن وليًّا، وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة، وإما أن تحدث عيبًا يبقى صفة لا تزول، فإن الأعمال تورث الصفات والأخلاق»[1].

اقرأ كلمات ابن القيم واسترجع شريط ذكرياتك وستجد أن ما من كلمة خطَّها إلا وكانت مصداق حادثة وقعت معك عندما آثرت شهوتك يومًا.. أليس كذلك؟!.

فالصبر الصبر... والبذل البذل.. والتعب التعب..

من صام اليوم عن شهوته، أدركها في الجنة غدا، ومن صام عما سوى الله فعيده يوم اللقاء ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ﴾[العنكبوت: ٥]. والجزاء من جنس العمل

من صفات الجنة أن...

ظلها ممدود... لمن لا يتعدى الحدود.

عيشها مقيم... لمن على أوامر الله يستقيم.

بساتينها زاهرة... لمن له عين لله ساهرة.

ماؤها مسكوب... لمن بذكر الله أحيا القلوب.

---

(١) كتاب الفوائد ص (١٨٢، ١٨٣)- ابن قيم الجوزية- ط دار النفائس.

قطوفها دانية... لمن روحه لحب الصالحين دانية.

فيها قاصرات الطرف في الخيام... لمن قصر طرفه عن الآثام.

فيها عينان تجريان... لمن له اليوم عينان من خشية الله تجريان.

لا يسمع فيها لاغية... من صان سمعه في دنياه عن السماع لغانية.

فطوبى..

لمن جوَّع نفسه ليوم الشبع الأكبر.

وطوبى..

لمن أظمأ نفسه ليوم الري الكامل.

وطوبى..

لمن صبر عن شهواتٍ زائلة ليسعد بنعيم جنات خالدة.

والآن ضع نصب عينيك هذه الدرر التي قالها ابن القيِّم وكتبناها لك بخط مميز حتى تنقش في ذهنك نقشًا:

«وقد اجمع عقلاء كل امة على أن النعيم لا يُدرَك بالنعيم، وأن من آثر الراحة فاتته الراحة، وانه بحسب ركوب الأهوال واحتمال المشاق تكون الفرحة واللذة، فلا فرحة لمن لا هَمَّ له، ولا لذة لمن لا صبر له، ولا نعيم لمن لا شقاء له، ولا راحة لمن لا تعب له، بل إذا تعب العبد قليلاً استراح طويلاً، وإذا تحمَّل مشقة الصبر ساعة قاده لحياة الأبد، وكل ما فيه أهل النعيم المقيم فهو صبر ساعة، وكلما كانت النفوس أشرف والهمة أعلى كان تعب البدن أوفر، وحظه من الراحة أقل»[1].

(١) مفتاح دار السعادة ص (٢/ ١٥)- ابن قيم الجوزية- ط دار الكتب العلمية.

ثانياً: قلب لا يُصاد بالطعم

(أ) قلب شعاره اليقظة:

ولكن ما هي اليقظة؟

اليقظة: (هي انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين، ولله ما أنفع هذه الروعة! وما أعظم قدرها وخطرها! وما أشد إعانتها على السلوك، فمن أحس بها فقد أحس والله بالفلاح، و إلا فهو في سكرات الغفلة)[1].

وما إن نزلت اليقظة في قلب المتسابق حتى لقيت الغفلة جاثمة فيه، وقبل طردها قالت لها:

سلامٌ على اللذات واللهو والصبا ... سلامُ وداعٍ لا سلامُ قدوم

وبدأت في إحداث هذه الآثار:

آثار اليقظة

*** لنبِّه إلى كثرة النعم:**

هذه اليقظة تؤدي إلى ملاحظة نعم الله الظاهرة والباطنة، فيشاهد عظمتها وكثرتها، وييأس من عدِّها والوقوف على حدِّها، وتفضل الله عليه بها دون أن يستحقها ولا أن يدفع ثمنها، وأنى له أن يدفع، ولو سُلِبت منه نعمة واحدة كنعمة البصر أو السمع ثم طلب

---

(١) تهذيب مدارج السالكين ص (١٠١).

إليه أن يدفع كل ما يملك ثمنًا لردها ما تردد لحظة واحدة.

كما تؤدي هذه اليقظة إلى مشاهدة التقصير في شكر هذه النعم فيتحقق بذلك مراد قوله: «أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي»، ويعلم بأن هذا الاستغفار حقيق بأن يكون سيد الاستغفار، ويعلم حينئذٍ أن الله لو رحمهم لكانت رحمته فضلاً منه لا جزاء عملهم، ورضي الله عن يحيى بن معاذ إذ يقول في هذا: «إن قام عليهم عدله لم تبق لهم حسنة، وإن نالهم فضله لم تبق لهم سيئة»[1]، فباليقظة يعلم العبد بأنه سائر إلى الله بين مطالعة نعمه الكثيرة ومشاهدة تقصيره الشديد.

فتيقظ وأدمن النظر في مرايا النعم ترَ قبح الجحود بوضوح، فستسعى في ضوء هذه الرؤية إلى تجميل النفس وتزيينها بالشكر القولي والعملي.

* تعلم فن إحصاء السيئات:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف: ٥٧]، فكما يحصي التاجر الدينار والدرهم، وكما يحسب الطالب درجات النجاح والرسوب، فإن المتسابق معنا يحصي سيئاته ويحذر عاقبتها. خذ سفيان الثوري مثلاً حيث يخبرنا بأسى ومرارة: «حُرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته»[2].

فالشهور لا تنسيه ذنبه، وإنما هو نصب عينيه. وهذا التابعي

(١) فقه السالكين ص (٥٦)- جمال ماضي- ط دار المدائن.

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص (٨٥)- ابن قدامة المقدسي- ط دار الفيحاء ودار عمار.

محمد بن سيرين أصابه دين فحاسب نفسه محاسبة الأبرار لا محاسبة التجار فقال: «والله ما وقع هذا إلا بذنب أذنبته منذ أربعين سنة قلت لرجل: يا مفلس، ثم قال: فحدثت به أبا سليمان الداراني فقال: قلَّت ذنوبهم فعرفوا من أين يؤتون، وكثرت ذنوبي وذنوبك فليس ندري من أين نؤتى»[1].

وهذا أحمد بن أبي الحواري- ريحانة الشام- يشكو لأبي سليمان الداراني فيقول: لم أوتر البارحة، ولم أُصلِّ ركعتي الفجر، ولم أُصلِّ الفجر في جماعة!! فقال له: «لما قدمت، والله ليس بظلام للعبيد... شهوة أصبتها»[2].

قال ابن الصافي البقَّال بدينور: كان بدينور سجَّان قال لي: «إني بقيت على باب السجن نيفًا وثلاثين عامًا فما من أحد حُمِل إلى السجن من الذين أخذهم الحرس بالليل إلا سألته فقلت له: هل صليت العشاء الآخرة في جماعة إلا قال: لا. ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠]»[3].

ويفسِّر النبي ﷺ هذه الآية فيقول: «ما اختلج (اضطرب وارتعد) عِرْق ولا عين إلا بذنب، وما يدفع الله أكثر»[4].

وحلَّل شيخ الإسلام ابن تيمية عملية ظلم الإنسان لأخيه الإنسان في ضوء الحديث السابق، فخرج من ذلك بنتيجتين مهمتين،

---

(١) صفة الصفوة (٣/ ٢٤٦)- ابن الجوزي- ط دار الفكر.

(٢) حلية الأولياء (١٠/ ٦).

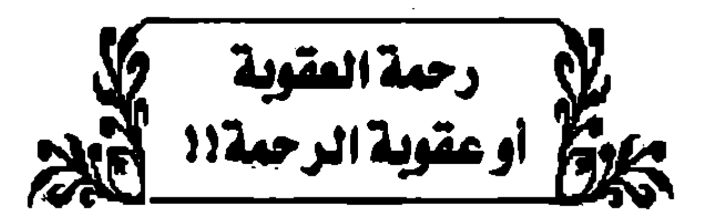
(٣) قوت القلوب ص (٨٥)- أبو طالب المكي- ط مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

(٤) رواه الطبراني في الأوسط والضياء عن البراء كما في (ص ج ص) رقم (٥٣٩٧).

ثم أهداهما لنا فقال:

النتيجة الأولى: «العباد آلة؛ فانظر إلى الذي سلَّطهم عليك، ولا تنظر إلى فعلهم بك، لتستريح من الهمِّ والغمِّ»[(١)].

النتيجة الثانية: «إذا رأيت العبد يقع في الناس إذا آذوه، ولا يرجع إلى نفسه باللوم والاستغفار، فاعلم أن مصيبته مصيبة حقيقية»[(٢)].



رحمة العقوبة أو عقوبة الرحمة!!

ومن رحمة الله بعبادة المؤمنين أن جعل عقوبة المعصية في الدنيا حتى تكون تنبيهًا لهم عما بدر منهم، قال ابن الجوزي: «فرُبَّ شخص أطلق بصره فحُرِم اعتبار بصيرته، أو لسانه فحُرِم صفاء قلبه، أو آثر شبهة في مطعمه، فأظلم سره، وحُرِم قيام الليل وحلاوة المناجاة إلى غير ذلك مما يعرفه أهل محاسبة النفوس»[(٣)].

بل إن تعجيل عقوبة العبد في الدنيا من علامات حب الله له، يقول النبي ﷺ: **«إذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه، حتى يُوافي به يوم القيامة»**[(٤)].

ويؤكد هذا أبو سليمان الداراني فيقول: «كلما ارتفعت منزلة

---

(١) قاعدة في الصبر ص (٣٧).

(٢) المصدر السابق ص (٣٧).

(٣) صيد الخاطر ص (٣٦).

(٤) رواه الترمذي والحاكم عن أنس، والطبري عن عمار بن ياسر كما في (ص ج ص) رقم (٣٠٥).

القلب كانت العقوبة إليه أسرع»[١].

وأهل اليقظة لا يلتذون بالمعصية لأنه (لا ينال لذة المعاصي إلا سكران بالغفلة، فأما المؤمن فإنه لا يلتذ بها لأنه عند التذاذه يقف أمامه علم التحريم، وحذر العقوبة، فإن قويت معرفته رأى بعين علمه قرب الناهي [وهو الله] فيتنغص عيشه وقت التذاذه، وما هي إلا لحظة ثم ندم ملازم، وبكاء متواصل، وأسف على ما كان مع طول الزمان، حتى لو تيقن العفو وقف بإزائه حذر العتاب)[٢].

واسمع: (يا من معاصيه أكثر من أن تُحصى، يا من رضي أن يُطرد فيُقصى، يا دائم الزلل وكم يُنهى ويوصى، يا جهولاً بقدرنا ومثلنا لا يُعصى، إن كان قد أصابك داء داود[٣]، فنُحْ نَوْح نُوح[٤]، تحيا بحياة يحيى)[٥].

العقاب الجماعي!!

ولو أن العقوبة كانت على النطاق الفردي فحسب لكانت محتملة، لكنها وبائية تتعدَّى لتصيب الجميع، فعن عكرمة قال: التقى ابن عباس وكعب -رضي الله عنهما- فقال كعب:

---

(١) حلية الأولياء (٩/ ٢٥٧).

(٢) صيد الخاطر ص (٩٧).

(٣) داء داود: معصية داود.

(٤) نُحْ نَوْح نُوح: أي ابك بكاء نوح عليه السلام، ويقال: إنما سمي نوح نوحًا لأنه كان نواحًا، أي كثير البكاء من خشية الله.

(٥) الياقوتة ص (٤٨).

«يا ابن عباس!! إذا رأيتَ السيوف قد عُرِّيت، والدماء قد أهريقت، فاعلم أن حكم الله قد ضُيِّع، وانتقم الله لبعضهم من بعض، وإذا رأيتَ الوباء قد فشا فاعلم أن الزنا قد فشا، وإذا رأيت المطر قد حُبِس فاعلم أن الزكاة قد حُبست، ومنع الناس ما عندهم ومنع الله ما عنده»[(١)].

* تبقى المتسابق في حذر دائم:

فرُبَّ طاعة أورثت عزًّا واستكبارًا:

هكذا كان إبليس، أعجب بطاعته فاستكبر عن طاعة الأمر فطرد من رحمة الله، ومن هذا كان يحذر بشر بن الحارث: صلى يومًا فأطال الصلاة وأحسن وكان رجل يصلي خلفه فنظر له بشر وقال: «لا يعجبك ما رأيت مني، فإبليس عبد الله مع الملائكة دهرًا، ثم صار إلى ما صار إليه»[(٢)].

والعجب فضلاً عن أنه يحبط العمل فإنه يولد في النفس العديد من أمراض القلوب كالغرور والتكبر والرياء وحب المدح، وهذه الأمراض أخطر بكثير من معاصي الجوارح، لذا قال مورِّق العجلي: «خيرٌ من العُجب بالطاعة ألا تأتي بطاعة»[(٣)].

ومن أنجع الأدوية في معالجة داء العجب ما صنعه المداوي الحاذق أبو حامد الغزالي في صورة مَثَل يعرف به كل واحد منا قدره

---

(١) حلية الأولياء (٥/ ٣٧٩).

(٢) بشر بن الحارث ص (٧٣).

(٣) البيان والتبيين للجاحظ (٣/ ٨١)- ط دار الكتب العلمية.

فلا يتكبر أو يغتر، يقول رحمه الله:

«الملك العظيم إذا أذن بإدخال الهدايا والذخائر النفيسة والأموال الجليلة، فإذا جاء بقال بباقة بقل، أو قروي بسلة عنب، فيدخل في حضرته ويزاحم أولئك الأغنياء والكبراء بهداياهم الكثيرة الشريفة، وهذا الملك يقبل من هذا الفقير هديته، ويأمر له بأنفس خلعة وكرامة، ألا يكون ذلك منه غاية الفضل والكرم؟!!.

فإذا أخذ هذا الفقير يَمُنّ بذلك على الملك ويعجب به ويستعظمه وينسى مِنَّة الملك، ألا يقال: هذا مجنون مضطرب العقل، أو سفيه سيئ الخلق عظيم الجهل؟

فالآن إنك إذا قمت لله ليلة وصليت ركعات، فإذا فرغت فتفكر كم قام لله سبحانه في هذه الليلة من الخدم في أقطار الأرض، وكم حضرت في هذه الساعة بباب الله سبحانه من عبادة صافية، وخدمة خاصة عن أنفس خاشعة وأبدان طاهرة وعيون باكية وقلوب عامرة وصدور نقية وأركان تقية، وصلاتك إن كنت بذلت المجهود في تحسينها وإحكامها وإصلاحها فلا تكاد تصلح بحضرة هذا الملك، ولا تتبين في جنب تلك العبادات التي تعرض هنالك، كيف وقد كانت منك عن قلب غافل مختلط بأنواع العيوب، وبدن نجس بأقذار الذنوب، ولسان متلطِّخ بأنواع المعصية والفضول؟.

« فانظر أيها الغافل: هل وجَّهت صلاة من صلواتك إلى السماء كمائدة بعثتها إلى بيوت الأغنياء؟!» [1].

(١) منهاج العابدين ص (٢٣٢) بتصرف- أبو حامد الغزالي- ط دار الحكمة.

وآثر الشافعي الإيجاز فقال: «إذا خفت على عملك العُجْب، فاذكر رضا من تطلب، وفي أي نعيم ترغب، ومن أي عقاب ترهب، فمن تفكَّر في ذلك صغر عنده عمله»[(١)].

فإن كنت يقظًا ونجوت من هذا الفخ أتيناك ببشرى إسحاق بن خالد يزفها إليك فيقول: «ليس شيء أقطع لظهر إبليس من قول ابن آدم: ليت شعري .. بماذا يختم لي؟ عندها ييأس إبليس ويقول: متى يُعجب هذا بعمله؟»[(٢)].

ورب معصية أورثت ذلاً واستغفارًا:

حتى يقول إبليس متندمًا: ليتني لم أوقعه في هذه المعصية، فرُبَّ عِلَّة كانت سببًا للصحة.

لعل عَتْبك محمودٌ عواقبه وربما صحَّت الأجساد بالعلل

قال بعض السلف: «كان داود بعد التوبة خيرًا منه قبل الخطيئة، ولهذا قال سبحانه: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٢٥]، فزاده على المغفرة أمرين: الزلفى وهي درجة القرب منه، والثاني: حسن المآب وهو حسن المنقلب وطيب المأوى عند الله»[(٣)].

فمن قُضِي له بالتوبة كان كما قال بعض السلف: إن العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة، قالوا: كيف؟ قال:

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٤٢).
(٢) مع العارفين ص ١١١ - ط دار المسلمون الأولى.
(٣) طريق الهجرتين لابن القيم ص (٢٩٦، ٢٩٧)- ط دار ابن حزم.

«يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه خائفًا منه مشفقًا وجلاً باكيًا نادمًا مستحييًا من ربه تعالى، ناكس الرأس بين يديه، منكسر القلب له، فيكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة بما ترتب عليه من هذه الأمور التي بها سعادة العبد وفلاحه، حتى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة»[1].

وما تزال المعصية ماثلة أمامه حتى يصير أعبد الناس، سئل سعيد بن جبير: من أعبد الناس؟ قال: «رجلٌ اجترح من الذنوب وكلما ذكر ذنبه احتقر عمله»[2].

إياك ثم إياك

أن تفخر على العاصي بطاعتك، أو تُعيِّره بمعصيته لأن (وقوفه بين يدي الله ناكس الرأس، خاشع الطرف، منكسر القلب، أنفع له وخير من صولة طاعتك، وتكثرك بها والاعتداد بها، والمنة على الله وخلقه لها، فما أقرب هذا العاصي من طاعة تدل بها عليه، وإنك إن تبيت نائمًا وتصبح نادمًا، فهو خيرٌ لك من أن تبيت قائمًا وتصبح معجبًا، فإن المعجب لا يصعد له عمل، وإنك إن تضحك وأنت معترف فهو خير لك من أن تبيت وأنت مُدِل، فأنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين المدِلين، ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواء استخرج به داء هو فيك وأنت لا تشعر)[3].

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص (٦، ٧)- ابن قيم الجوزية- ط دار الكتب العلمية.

(٢) حلية الأولياء (٤/ ٢٧٩).

(٣) تهذيب مدارج السالكين ص (١١٩، ١٢٠).

لقي بشر بن الحارث رجلاً سكرانًا، فجعل الرجل يُقبِّله ويقول: يا سيدي، يا أبا نصر، ولا يدفعه بشر عن نفسه، ولما تولى ذرفت عينا بشر بالدموع وقال: «إنه أحب رجلاً على خير توهمه فيه، ولعل المحبوب هلك والمحب نجا»[١].

*** تجعل همة المؤمن متعلقة بالآخرة:**

فكل ما في الدنيا يحرِّكه إلى ذكر الآخرة وكما قالوا: همك ما أهمك.

(ألم تر إلى أرباب الصنائع لو دخلوا إلى دار معمورة رأيت البنَّاء ينظر إلى الحائط، والنجَّار ينظر إلى الباب والنوافذ، والحائك ينظر إلى النسيج. فكذلك المؤمن اليقظان: إذا رأى ظلمة ذكر ظلمة القبر، وإذا شكا ألما ذكر العقاب، وإن سمع صوتًا فظيعًا ذكر نفخة الصور، وإن رأى نيامًا ذكر الموتى في القبور، وإن رأى لذة ذكر الجنة)[٢].

روي أن الحسن البصري -رحمه الله- أُعطي شربة ماء بارد، فلما أخذ القدح غشي عليه وسقط من يده، فلما أفاق قيل له: ما ذلك يا أبا سعيد؟ قال: «ذكرت أمنية أهل النار حين قالوا لأهل الجنة: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠]»[٣].

تخرج في نفس المدرسة عالم آخر أخروي الهمة هو عبد الله بن المبارك، كان أقرانه يتعجبون من أثر كلماته في القلوب حتى تجلى السر يومًا؛ كانوا يسيرون معه في ليلة مظلمة، وفي أيديهم سراج يضيء لهم

---

(١) صفة الصفوة (٢/ ١٩٨).

(٢) صيد الخاطر ص (٣٢١).

(٣) أيها الولد ص (١٦، ١٧)- أبو حامد الغزالي- ط دار ابن حزم.

الطريق، وبينما هم كذلك إذ هبت ريح لتطفئ نور السراج ويسود ظلامٌ دامس للحظات، ثم لم يلبث أحدهم أن أضاءه، فلما أضاء فإذا بدموع الرجل تبلل لحيته فأقروا معترفين: «بهذه الخشية فُضِّل هذا الرجل علينا، ولعله حين فقد السراج فصار إلى الظلمة ذكر القيامة»(١).

وإذا كانت الظلمة قد أبكت عبد الله بن المبارك، فإن النار أبكت الربيع ابن خثيم وهرم بن حيان.

وإليك خبرهما:

- مشى الربيع بن خثيم في الحدادين فلما نظر إلى الأكوار تنفخ، وإلى النار تلتهب صعق مغشيًا عليه، فقعد ابن مسعود عند رأسه إلى وقت الصلاة فلم يفق، فحمله على ظهره إلى منزله، فلم يزل مغشيًا عليه إلى مثل الساعة التي صعق فيها فاتته خمس صلوات(٢).

- مشى هرم بن حيان على قوم يصهرون الحديد على النار فجعل يردِّد: «اللهم أجرنا من النار» لكنه يأبى أن يناله الخير وحده، وهو يعلم أن «من دلَّ على خير فله مثل أجر فاعله»(٣)، ويعزم على أن يسبق الربيع فيستفيق سادرًا في غفلته أو أسيرًا كبَّلته شهوته فتنقشع الغفلة وتنكسر القيود فينال مثل ثواب من هداهم، فتجده يرفع صوته عقب أذان الفجر: «عجبت من الجنة كيف نام طالبها، وعجبت من النار كيف نام هاربها»(٤).

---

(١) صفة الصفوة (٤/ ٩٧).
(٢) حلية الأولياء (٢/ ١١٠).
(٣) رواه مسلم وأبو داود والترمذي عن ابن مسعود كما في (ص ج ص) رقم (٦١١٥).
(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٨).

* نجعل ميزان الآخرة هو ميزان الربح والخسارة:

أما موازين الدنيا فلا يعرفها متسابقونا، ولو أن ثلة من الأصحاب اجتمعوا وتساءلوا عن أفضل يوم طلعت عليهم فيه شمس لقال أحدهم: يوم مولدي، ولأجاب آخر: يوم تخرجي، وثالث ورابع..

- لكن رسول الله ﷺ يضع هذه الموازين جانبًا ويخبر كعب بن مالك رضي الله عنه يوم تاب الله عليه ويقول: «أبشر بخير يومٍ مر عليك منذ ولدتك أمك»[1]، أجل.. هذا هو خير يوم، يوم يتوب الله عليك ويقبلك في الصالحين.

- نبينا ﷺ ينتصب لنا قدوة في هذا المجال: حيث سأل الصحابة يومًا: «أتدرون من المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: «إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته؛ فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطُرحت عليه، ثم طُرح في النار»[2].

ولما ذُبحت عنده شاة تصدق بها واستبقى كتفها قالت أم المؤمنين عائشة: ما بقي منها إلا كتفها، تزن الأمر بميزان الدنيا، فردَّها إلى ميزان السباق- ميزان الآخرة- وقال: «بقي كلها غير كتفها»[3].

---

(١) رواه الشيخان عن عبد الله بن كعب كما في اللؤلؤة والمرجان رقم (١٧٦٢).

(٢) رواه مسلم وأحمد وغيرهما عن أبي هريرة كما في (ص ج ص) رقم (٨٧) والسلسلة الصحيحة رقم (٨٤٥).

(٣) رواه الترمذي رقم (٢٤٧٢) وقال: حديث صحيح.

- وكأن خبر هذه الشاة وصل إلى بلال مولى أبي بكر ﷺ فيأبى إلا أن يضع بصمته في كتابنا. لما سئل بلال وكان مارًّا بسباق الخيل: من سبق؟ قال: سبق المقرَّبون. قال السائل: إنما أسألك عن الخيل. قال: « وأنا أجيبك على الخير »[1].

- ويقتفي الأثر خطوة الزاهد عبد الواحد بن زيد: لما أراد أحد الناس أن يكلمه بلغو الحديث قال: ذكر الله أشهى. قال: وحدك؟ فأجاب: معي ربي وملكاي، قال: أين الطريق؟ فلم يجب وأشار إلى السماء.

- ميزان الآخرة هذا ينتصب عند نزول البلاء فترى العجب:

أصيب نصر الدين أخو نور الدين محمود زنكي خلال حصار بانياس عام ٥٦٠هـ بسهم أذهب إحدى عينيه فلما رآه نور الدين قال له: «لو كشف لك من الأجر الذي أعد لك لتمنيت ذهاب الأخرى»[2]، هذا ردُّه ولو كان غيره ممن قعد عن السباق لبكى وناح كما تنوح الثكالى يحسبها محنة، وليست عند أهل اليقظة سوى منحة.

- ميزان الآخرة يجعل المتسابق يتخلَّص من تعريفاته القديمة للبلاء والعافية والصحة والمرض ليستعمل المقاييس الإيمانية الجديدة. قال رجل لحاتم الأصم: ما تشتهي؟ قال: أشتهي عافية يوم إلى الليل. قال الرجل: أليست الأيام كلها عافية؟! قال حاتم: «إن عافية يومي أن لا أعصي الله فيه»[3].

---

(١) البيان والتبيين ص (٣٥٢).

(٢) رحلة في تكوين حاكم مسلم ص (٣٥)- د. عماد الدين خليل- ط دار الاعتصام.

(٣)شعب الإيمان (٥/ ٤٥١) - ط دار الكتب العلمية – بيروت.

لا يسبقنك الديك

يقظة نتعلمها من معلم همام من غير بني البشر يعلو صوته مسبِّحًا وأنت تغط في نومك، فلا يكونن الديك أكيس منك، ينادي بالأسحار وأنت نائم.

لقد هتَفَتْ في جنح الليل حمامة	على فنن وهنًا وإني لنائم
كذبتُ وأيم الله لو كنت عاشقًا	لما سبقتني بالبكاء الحمائم
وأزعم أني هائم ذو صبابة	لربي فلا أبكي وتبكي البهائم

* يتضاعف معها ثواب العبادة أضعافًا كثيرة:

وفي غياب اليقظة تتحول العبادة إلى عادة، يقول ابن الجوزي:

«تأمَّلت على أكثر الناس عباداتهم فإذا هي عادات، فأما أرباب اليقظة فعبادتهم عبادة حقيقية، فإن الغافل يقول: «سبحان الله» عادة، والمتيقظ لا يزال فكره في عجائب المخلوقات، أو في عظمة الخالق، فيحركه الفكر في ذلك فيقول: سبحان الله، ولو أن إنسانًا تفكر في رمانة، فنظر في تصفيف حبها، وحفظها بالأغشية لئلا يتضاءل، وتصوير الفرخ في بطن البيضة، والآدمي في حشا الأم، إلى غير ذلك من المخلوقات، أزعجه هذا الفكر إلى تعظيم الخالق، فقال: سبحان الله، وكان هذا التسبيح ثمرة الفكر فهذا تسبيح المتيقظين»[1].

هذا التفكير عدَّه شقيق البلخي من الخصلتين اللتين تشغلان المؤمن وتملكان عليه حياته، قال شقيق: «المؤمن مشغول بخصلتين:

---

(١) صيد الخاطر ص (٣٢٠).

الاعتبار والتفكر»[١].

ليس هذا فحسب بل إن ابن القيم اعتبر التفكر (من أجلِّ أعمال القلب، وأنفعها له حتى قيل: تفكر ساعة خير من عبادة سنة، فالتفكر هو الذي ينقل من موت الغفلة إلى حياة اليقظة، ومن المكاره إلى المحاب، ومن ضيق الجهل إلى سعة العلم ورحبه، ومن مرض الشهوة والإخلاد إلى هذه الدار إلى شفاء الإنابة إلى الله والسمع والفهم عن الله والعقل عنه، ومن أمراض الشبهات إلى برد وثلج السرور)[٢].

وصدق رب العزة في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]، ولقد حُكي أن سفيان الثوري تفكر يومًا في السماء وخلقها حتى غُشي عليه، وسئلت أم الدرداء: «أي عبادة أبي الدرداء كانت أكثر؟ فقالت: التفكر»[٣].

وفي الصدارة: رسول الله ﷺ حيث دفعه هذا التفكر إلى البكاء حتى ابتلت لحيته ثم سجد فبكى حتى بلَّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى إذا أتى بلال ﷺ يؤذنه بصلاة الصبح، قال: يا رسول الله، تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: **«أفلا أكون عبدًا شكورًا؟ لقد نزلت عليَّ الليلة آيات، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَآيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾** [آل عمران: ١٩٠][٤]، فكن يقظًا ولا

(١) مع العارفين ص (٢٣).
(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ٢١٨)- ط دار الحديث.
(٣) الزهد لابن المبارك ص (٦١)- ط دار خلدون.
(٤) رواه ابن حبان كما في السلسلة الصحيحة رقم (١٠٦).

تكن ممن توعدهم رسول الله ﷺ.

فإن غفلت وسهوت قلنا لك: «واعجبًا لك!! لو رأيت خطًا مستحسن الرقم لأدركك الدهش من حكمة الكاتب، وأنت ترى رقوم القدرة ولا تعرف الصانع، فإن لم تعرفه بتلك الصنعة فتعجب كيف أعمى بصيرتك مع رؤية بصرك»(١).

ويتضمن التفكر: البحث في العلوم المختلفة، وإطالة النظر في خلق الله، والتوسع إلى النظر إلى وظائف أجهزة الإنسان، وعجائب الجبال والبحار والغابات، وغير ذلك مما تزدحم به مكتبات اليوم السمعية والبصرية.

(ب) قلب عدوه الغفلة:

غفلة مضحكة

هذه الغفلة دفعت أبا الدرداء ﷺ إلى الضحك قائلاً: «أضحكني ثلاث: مؤمِّل دنيا والموت يطلبه، وغافل ليس بمغفول عنه، وضاحك ملء فيه لا يدري أرضى الله أم أسخطه»(٢).

وسرعان ما يتحول الضحك إلى تحذير حين رأى رجلاً يضحك ملء فيه قائلاً:

كيف بك إذا حُفِر لك من الأرض أربعة أذرع، فلم يضحك الرجل بعدها قط.

ومن نفس المشكاة قبس معروف الكرخي، جلس إلى جماعة،

---

(١) التبصرة (١/ ٩٨)- ابن الجوزي- ط دار ابن خلدون، والرقم: الكتابة.
(٢) التذكرة (١/ ٩٨)- القرطبي.

فاغتاب رجلٌ منهم آخر، فأيقظه معروف قائلاً له: « يا هذا.. اذكر يوم يوضع القطن على عينيك »[(١)].

ثلاث لوحات

هذه الغفلة دفعت بشر بن الحارث الحافي إلى محاولة تبسيط الأمر على المسلمين حتى لا يكون لأحد عذر فقال: «إن هذه الدار نملة تجمع الحب في الصيف لتأكله في الشتاء، فلما كان يوم.. أخذت حبة في فمها، فجاء عصفور فأخذها والحبة، فلا ما جمعت أكلت ولا ما أمَّلت نالت؟»[(٢)].

وفي لوحة أخرى يرسمها ابن الجوزي يقول:

« الدنيا فخ والناس عصافير، والعصفور يريد الحبة وينسى الخنق، قد نسي أكثر الخلق مآلهم ميلاً إلى لذاتهم، فأقبلوا يسامرون الهوى، ولا يتلفتون إلى مشاورة العقل، ولقد باعوا بلذة يسيرة خيرًا كثيرًا، واستبدلوا بشهوات مرذولة عذابًا عظيمًا، فإذا نزل الموت بأحدهم قال: ليتني لم أكن، ليتني كنت ترابًا، فيقال له: آلآن وقد عصيت؟»[(٣)].

فإن غيَّمت سحب الغفلة على بصرك فلم تتبين لَوْحَتَيْ بشر وابن الجوزي عرضنا لك لوحة ثالثة رسمها الحسن البصري بألوان براقة كفيلة بأن تقشع الغشاوة وتورث الهداية، يقول رحمه الله:

---

(١) حلية الأولياء (٨/ ٣٦٤).

(٢) بشر بن الحارث ص (٦٥).

(٣) صيد الخاطر ص (٣٧٣).

«يـا ابـن آدم السـكين تُشـحَذ، والتنـور يُسـجَر، والكـبش يعتلف»[١].

يضرب لذلك مثلاً للإنسان الغافل عن آخرته، اللاهي في دنياه، فيشبهه بالكبش يأكل العلف يُقدَّم له، والسكين تُشحذ لذبحه، والتنور يُسجر لطهيه، وهو لاهٍ ساهٍ عن ذلك بطعامه وشرابه.

صيحة في جوف الليل

هذه الغفلة دفعت أبا الدرداء إلى أن يصيح على درج مسجد دمشق ليلاً:

يا أهل دمشق.. ألا تسمعون من ناصح لكم: إن من كان قبلكم كانوا يجمعون كثيرًا، ويبنون مشيدًا، ويأملون بعيدًا، فأصبح جمعهم دورًا، وبنيانهم قبورًا، وأملهم غرورًا.

ولم يكن أبو الدرداء يبتدع أو يؤلف نهجًا جديدًا غير نهج رسول الله ﷺ... حاشاه، إنما تعلم هذه الصيحة من رسول الله ﷺ الذي كان كل ليلة إذا مضى ثلثا الليل صاح: **«يا أيها الناس اذكروا الله.. اذكروا الله.. جاءت الراجفة تتبعها الرادفة. جاءت الراجفة تتبعها الرادفة.. جاء الموت بما فيه»**[٢].

ويأبى أبو الدرداء ﷺ إلا أن يملأ صفحات كتابنا بأنوار كاشفة تبدد لنا ظلمات الغفلة فتمر به جنازة فيسأل رجلاً عمن يكون

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٨٦)، حلية الأولياء (٢/ ١٥٢).

(٢) رواه أحمد والترمذي والحاكم عن أبي بن كعب، وحسنه الألباني في (ص ج ص) رقم (٧٧٤٠).

صاحب الجنازة التي تمر أمامهم فأجابه قائلاً: هذا أنت!! مستشهدًا بقوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

وتستمر الأنوار البراقة تشع من مواقفه حتى عند موته؛ حيث جاء إليه رجل وهو مريض مرض الموت فقال: يا أبا الدرداء .. إنك قد أصبحت على جناح فراق الدنيا فمرني بأمر ينفعني الله به وأذكرك به، فقال أبو الدرداء: «اجلس ثم اعقل ما أقول لك، أين أنت من يوم ليس لك من الأرض غير عرض ذراعين في طول أربعة أذرع؟! أقبل بك أهلك الذين كانوا لا يحبون فراقك، وجلساؤك وإخوانك فأتقنوا عليك البنيان، ثم أكثروا عليك التراب ثم تركوك، ثم جاءك ملكان أسودان أزرقان أسماؤهما منكر ونكير فأجلساك ثم سألاك: من أنت؟ أم على ماذا كنت؟ أم ماذا تقول في هذا الرجل؟ فإن قلت: والله ما أدري، سمعت الناس يقولون قولاً فقلت قول الناس والله رديت وهويت، فإن قلت: محمدٌ رسول الله أنزل عليه الكتاب فآمنت به وبما جاء به فقد والله نجوت وهديت»[1].

حالنا وحالهم

هذه الغفلة دفعت ابن الجوزي إلى أن يجيب من يسأله: أيجوز لي أن أفسح لنفسي في مباح الملاهي؟ فأجاب قائلاً: عند نفسك ما يكفيك من الغفلة.

فإن اعترض معترض أتيناه بكلام ابن القيم حيث قال: لا بد من

(١) إثبات عذاب القبر وسؤال الملكين ص (١٨٠، ١٨١)- أبو بكر البيهقي- ط دار الجيل.

سِنة الغفلة، ورقاد الغفلة ولكن كن خفيف النوم.

انتبه من رقدة الغفلة   فالعمر قليل

واطْرح سوف وحتى   فهما داء دخيل

نعم نحن لا ننكر المباحات لكن نقللها إلى أدنى ما يكفي الجسم، فقد كانت المعصية قديمًا تتستر عن أعين العلماء وعن سيوف الأمراء، ولكنها اليوم في الشوارع والنوادي وفي أي مكان وطئته قدماك مما يجعل المؤمن أكثر تأثرًا بها من حيث لا يشعر، ويتولد في النفس إلف المعصية واعتياد رؤيتها، مما يجعل التبعة أثقل واليقظة أوجب.

قديمًا:

كان المؤذن كما ينادي للصلاة ينادي إذا دخل الثلث الأخير من الليل ويقول:

يا رجال الليل جدُّوا   رب داعٍ لا يُرد

لا يقوم الليل إلا   من له عزمٌ وجد

حديثًا:

وصل الفجر بالعشاء بالغناء واللهو ومشاهدة الحرام بدلاً مما كان يفعله كثير من السلف من صلاة الفجر بوضوء العشاء.

غافل وباذل

هذه الغفلة جعلت غافلاً يتعجب من باذل قائلا: إلى كم تتعب نفسك؟ قال: راحتها أريد، وحين سئل **الإمام أحمد**: متى يجد العبد

طعم الراحة؟ قال: عند أول قدم يضعها في الجنة. المعين واحد، والأرواح متعانقة فلا عجب أن تسمع نفس المعنى:

أحــزان قلـبي لا تــزول حتــى أُبشــر بــالقبول

وأرى كتــابي بــاليمين وتقَــرَّ عــيني بالرســول

في جنازة **داود الطائي** حيث قام **ابن السماك** خطيبًا يخطب الناس من بعد أن أهيل على أخيه التراب ويقول: «يا داود .. ما أعجب شأنك! وقد يزيد في العجب أنك من أهل زمانك، ألزمت نفسك الصمت حتى قومتها على العدل، وأهنتها وأنت تريد كرامتها، وأذللتها وأنت تريد عزها، وأجعتها وأنت تريد شبعها، وأظمأتها وأنت تريد ريها، وخشنت الملبس وإنما تريد لينه، وخشنت المطعم وإنما تريد طيبه.

أما كنت تشتهي من الماء بارده، ولا من الطعام طيبه، ولا من الملبس لينه، بلى ولكنك زهدت فيه لما بين يدك مما دعيت إليه ورغبت فيه، فما أصغر ما بذلت، وما أحقر ما تركت، وما أيسر ما فعلت في جنب ما أملت وطلبت»[1].

صدق والله ابن السماك: ما أيسر ما فعل داود وذلك لما يرى ويُكشف له عيانًا من عظيم نوال الله أو باهر عطائه حتى يقول حين يعاين الجنة:

فلما تلاقينا وعاينتُ حسنها تيقَّنْتُ أني إنما كنت ألعب

(ج) قلب دائب العمل:

فإذا تيقظ القلب وأفاق من غفلته، صار مضغة صالحة تصدر

---

(١) حلية الأولياء (٧/ ٣٣).

أوامرها إلى الأعضاء فيصلح الجسد كما صلح القلب من قبل. ومن بعد العلم يأتي العمل لأن زكاة العلم العمل به ولأن:

العلم يهتف بالعمل ... فإن حَلَّ و إلا ارتحل

أخي المتسابق: هذا علمك قد علمته، وهذا فهمك قد رشدته، فأين البقية! حضر داود الطائي مجلس علم لأبي حنيفة فالتفت إليه أبو حنيفة فقال: يا أبا سليمان، أما الأداة فقد أحكمناها، قال داود: فأي شيء بقي؟ قال: «بقي العمل بهذا العلم يا أبا سليمان»[1].

وتستمر هذه المشغلة النفسية العنيفة مع داود فيرد على حفص بن محمد حين يسأله عن مسألة: «هذه النفس أليس يجمع لها؟ فإذا فني العمر في جمع الآلة فمتى يحارب؟ إن العلم آلة العمل فإذا فني عمره فيه فمتى يعمل»[2].

(واعلم أن علمًا لا يبعدك اليوم عن المعاصي: ولا يحملك على الطاعة لن يبعدك غدًا عن نار جهنم، وإذا لم تعمل اليوم، ولم تتدارك الأيام الماضية فستقول غدًا يوم القيامة: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ [السجدة: ١٢]، فيقال: يا أحمق أنت من هناك تجيء)[3].

واعلم أن علمًا لا عمل بعده هو محض هراء وكذب على الله.

-**كذب على الله:** ادعاء الإيمان دون أن تفضحك علاماته من

(١) حلية الأولياء (٧/ ٣٤١، ٣٤٢).

(٢) السابق (٧/ ٣٤١).

(٣) أيها الولد ص (١٦).

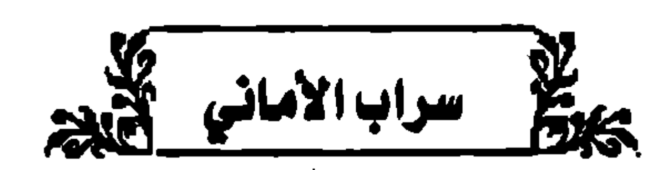
دموع المخبتين، وتسبيح القائمين، وأنين المذنبين.

-كذب على الله: زعم رسوخ حب الرسول ﷺ في القلب، وأنت تضيع سُنَّته، وتفرط في ميراثه، وتسلك غير طريقه، وتنام والخطيب يخطب على منبره.

-كذب على الله: أن تطنطن بالليل والنهار تسمعها أهل الحي: إني أخاف الله، ثم لا تحمل جوانحك سوى القلب الميت.. فمحارمه تنتهك على يديك، وحدوده تضيع بيديك، وصلواته تفرط فيها بيديك، وبالجملة يراك حيث نهاك، ويفتقدك حيث أمرك.

فما أشد ظلمك يا كاذب، عفوًا، فما هذا بكلامي إنه كلام رب العزة ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٣٢].

فإن جرحتك خشونة كلامي ووجدت عليَّ فيه قلت لك: (ويحك ما بيني وبينك عداوة، غير أني أقول الحق ولا أحابيك في دين الله عز وجل، قد تربيتُ على خشونة كلام المشايخ، إن ظهر مني إليك كلام فخذه من الله، فإنه هو الذي أنطقني به)[١].



قلة العمل مع المعرفة إذا صاحبها تطلع إلى أعلى المقامات هي ركض نحو السراب، بل عدَّها معروف الكرخي غرورًا وحمقًا وذنبًا

(١) الفتح الرباني ص ٢٤- عبد القادر الجيلاني- ط دار الريان للتراث.

من الذنوب فقال: «طلب الجنة بلا عمل ذنبٌ من الذنوب، وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء رحمة من لا يطاع جهلٌ وحمق»[١].

وأبى الحسن البصري إلا الصراحة فانطلق يفضح: «إن قومًا خرجوا من الدنيا وليس لهم حسنات من كثرة ما ألهتهم أماني المغفرة، يقول أحدهم: إني أحسن الظن بربي عز وجل، فلا أبالي أكثر العمل أم قلَّ، وهو كاذب في ذلك إذ لو كان أحسن الظن بربه حقيقة لأحسن العمل. قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣]»[٢]، سبحان الله.. وكأن الرجل ينظر من وراء أحجبة الزمن إلى حالنا.

وفرق شاسع بين الرجاء والتمني، إن التمني يكون مع الكسل ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد، والرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل.

قال يحيى بن معاذ: «من أعظم الاغترار التمادي في الذنوب، مع رجاء العفو من غير ندامة، وتوقع القرب من الله بغير طاعته، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمني على الله مع الإفراط»[٣].

من كان مرعى عزمه وهمومه روضَ الأماني لم يزل مهزولا

والآن ارفع كفيك داعيًا بما دعا به أبو حامد الغزالي:

---

(١) حلية الأولياء (٨/ ٣٦٧).

(٢) تنبيه المغترين للإمام الشعراني ص (١١٥).

(٣) الإحياء (٤/ ١٥١).

«اللهم لا تجعلنا ممن يقول ولا يعمل، ويسمع ولا يقبل، إذا سمعنا الوعظ بكينا، وإذا جاء وقت العمل بها سمعناه عصينا»[(١)].

وماذا بعد الكلام؟!

والآن وقد بلغتك كلماتنا فمسَّت شغاف قلبك لم يبق سوى التشمير عن ساعد الجد، والعمل ثم العمل حتى تطرد الفراغ من القلب، فلا يعود الشيطان يجد له موضع قدم فيبقى على الأعتاب..

بعد أن رأى راية منصوبة نُقِش عليها: (ممنوع الاقتراب)

مـن يُـرِدْ ملـك الجنـان	فليـدع عنـه التـواني
ولـيقم في جـوف ليـلٍ	مُسـرجًا نـور القُـرآنِ
وليصـل صـومًا بصـومٍ	إنَّ هـذا العـيش فـاني

إن عزمت فبادر، وإن هممت فثابر، واعلم أنه لا يدرك المفاخر من كان في الصف الآخر، العلم لا يحصل إلا بالنَّصَب، والمال لا يجمع إلا بالتعب، واسم الجواد لا يناله بخيل، ولا يحوز أحد لقب الشجاع إلا بعد جهد طويل[(٢)].

أين نفقات البناء؟

قال الحسن البصري: الملائكة يعملون لبني آدم في الجنان، يغرسون ويبنون، فربما أمسكوا فيقال لهم: قد أمسكتم، فيقولون: حتى تأتينا النفقات، فقال الحسن: فابعثوهم - بأبي أنتم وأمي - على العمل.

---

(١) الإحياء (٤/ ١٥١).

(٢) من مواعظ ابن الجوزي في المدهش وغيره.

فإن عرضت لك رفقة فارغة لم تعرف باشتراكك في سباقنا، ودعوك إلى قتل وقتك فرد عليهم بما ردَّ عمر بن عبد العزيز من قبلك على أشباههم:

قد جاء شغلٌ شامل وعَدَلت عن طرق السلامة
ذهب الفراغ فلا فراغ لنا إلى يوم القيامة

فلا تعود تبقى خزانة واحدة فارغة، بل خزائن ممتلئة عن آخرها تفيض وتشهد لصاحبها الذي أحق ما يوصف به عمله (كل يوم في مزيد).

وهكذا كان الإمام أحمد، قال إبراهيم الحربي: صحبت أحمد بن حنبل عشرين عامًا صيفًا وشتاءً، حرًّا وبردًا، ليلاً ونهارًا، فما لقيته في يوم إلا وهو زائد عليه بالأمس.

عمل سبقوا به من سواهم من سلف أو خلف، قال هشيم تلميذ منصور بن زادان: كان لو قيل له: إن ملك الموت على بابك ما كان عنده زيادة من العمل.

همة عالية وعزيمة ماضية بلغوا منها ما لو قيل لأحدهم: يوم القيامة غدًا ما وجد مزيدًا ليفعله، كما كان الحال مع صفوان بن سُليم، يقول رفيقه أنس بن عياض: رأيت صفوان لو قيل له: غدًا يوم القيامة ما كان عنده مزيد على ما هو عليه من العبادة[1]، يريد منصور

---

(١) ولذا حسنت خاتمته واسمعوا: لما حضر الموت صفوان بن سليم جاءه إخوانه، فجعل يتقلب، فقالوا: كأن لك حاجة. قال: نعم، فقالت ابنته: ما له من حاجة، إلا أنه يريد أن تقوموا عنه فيقوم فيصلي، فقام القوم عنه، وقام إلى مسجده، فصلى، فوقع، فصاحت ابنته، فدخلوا عليه، فحملوه، ومات. المحتضرين ص (١٥٠) بتصرف يسير.

وصفوان بذلك إغلاق الباب في وجه من أراد مسابقتهما بمزيد عمل يكثر عما أتيا به.

(د) قلب يحدوه التطلع:

المتسابق الذي حقق هذه الصفة في نفسه جسده في الدنيا، لكن قلبه يحلق في آفاق الآخرة، يهيم في عشق الحور العين، يحلم بأنهار من لبن وعسل وخمر لذة للشاربين، هذه هي حياته، فإذا جاءه الموت كان بوابته التي يعبر بها إلى ما كان يحلم به ويتمناه، وكان الفوز وأي فوز، فينشد معلنًا:

فزت ورب الكعبة.

صدح بها حرام بن ملحان فما فهمها المشركون، ذلك أنهم ما ذاقوا.. وذاق، وما عرفوا.. وعرف.

> **الخُطّاب كثيرون والمهر غال، من صفات الخاطب أن يستغفر في السحر، وكثير من الخطاب ينام عن صلاة الفجر، ومن صفاته أن يُقدِّم روحه هدية لمخطوبته وبعضهم يبخل بدرهمه.**

ذريني أنل ما لا يُنال من العلا فصعب

العلا في الصعب والسَّهل في السهل

تريد إدراك المعالي رخيصة ولا

بُدَّ دون الشهد من إبر النحل

قال النبي ﷺ لربيعة بن كعب الأسلمي ﷺ: «سلني؟» فما وجد أنفس من هذا الكنز يشتريه: أسألك مرافقتك في الجنة، فطلب النبي

ﷺ الثمن وقال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود»[1].

تطلع نتعلمه من نابغة هو أنس بن النضر ﷺ الذي لم يشهد بدرًا فقال: لئن كان لرسول الله قتال مع قريش ليرين الله ما أصنع، رآه سعد بن معاذ يوم أحد فقال: إلى أين؟ فأجاب: «يا سعد بن معاذ .. الجنة ورب الكعبة، إني لأجد ريحها من دون أحد»[2]، ولقي ربه شهيدًا، ولم تعرفه أخته إلا ببنانه، حيث وُجِد به بضع وثمانون ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم.

أيها المتسابق المتطلع: لا يخدعنك عزٌّ فَانٍ، ولا يغرنك ملك زائل، واعلم أن الجنة هي الوطن، وإنما تُقضى الأوطار في الأوطان، أما الدنيا فدار غربة منذ أُهبط إليها الأبوان.

كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبدًا لأول منزل

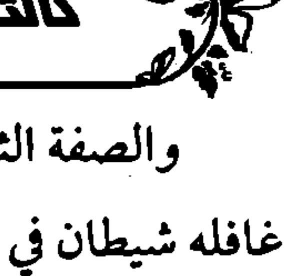
فحي على جنات عدنٍ فإنها ... منازلنا الأولى وفيها المُخيَّم

ولكننا سبي العدو فهل ... نعود إلى أوطاننا ونُسلِّم



(١) رواه مسلم والنسائي وأبو داود وأحمد عن ربيعة بن كعب كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم (٣٨٤).

(٢) رواه الشيخان وغيرهما عن أنس بن مالك.



ثالثا: قلب دائم الثار

والصفة الثالثة أن يكون القلب قويًا، دائم الثأر من شيطانه، فإذا غافله شيطان في غلبة شهوة فغلبه، أو ورود هوى فهوى، جَدَّ ولمح نور قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، فسار على ضوئه، وطرد عدوه وأضناه.

لكن كيف يتم ذلك؟

اعلم أنه ما من أحد منا إلا ومعه ملك وشيطان، فإذا عمل أحدنا بطاعة الله ابتدره الملك وطرد عنه الشيطان فلا يتولاه إلا الملك، ولا يدله إلا على خير، وهذا هو فهم أحد سلفنا الصالح حيث يقول: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها. قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم:٧٦].

وإذا حلّت الهداية قلبًا نشطت للعبادة الأعضاء

وإذا عمل أحدنا بمعصية الله ابتدره الشيطان وطرد عنه الملك فلا يتولاه إلا الشيطان فلا يدله إلا على شر، وهذا قولهم: إن من عقوبة السيئة السيئة بعدها، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥].

بلغة أخرى: من عمل طاعة من الطاعات وفرغ منها فعلامة قبولها أن يصلها بطاعة أخرى، وعلامة ردها أن يعقب تلك الطاعة بمعصية، فمن رأى نفسه في زيادة أعمال وترقي أحوال فهي بشارة على قبول عمله بإذن الله.

التابعي الجليل وأحد الفقهاء السبعة عروة بن الزبير كان قد لمح هذا الشعاع الإيماني فالتقطه وعكسه علينا في قوله: «ما من حسنة إلا وهي تدعو أختها، وما من سيئة إلا وهي تدعو أختها»، فإذا غلبتك شهوة واعترتك غفلة فاعلم أن الشيطان قد ابتدرك، فعليك بطرده وملاحقته والثأر منه، وذلك باتباع المعصية بطاعة، عندئذٍ يتداركك الملك ويفر منك الشيطان.

وإذا تمثل القلب هذه الصفة وكان دائم الثأر كان (كقلب خالد بن معدان يحدثنا عن الشيطان فكأنما هو ممسك به يعصره ويحطم ضلوعه.. يقول: «ما من عبد إلا وله شيطان متبطن فقار ظهره لاوٍ عنقه على عاتقه، فاغر فاه على قلبه، فإذا ذكر الله خنس، وإذا غفل وسوس، فكأن الشيطان- والله- متكشف أمامنا بكل عوراته، وكأنا أوتينا بهذه الكلمات أسلحة النصر جميعًا في مغالبته)[1].

وقلوب السابقين قلوب دائمة الثأر من نفس نوع قلب خالد:

* قلوب يعلم كل منها أنه «إذا أكل شبهة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع، وإذا نظر إلى محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر، وكذلك يعاقب كل طرف من أطرافه بمنعه من شهواته، هكذا عادة سالكي طريق الآخرة»[2].

* قلوب يعلم كل منها أن من أراد الوصول فلينفذ وصية الرسول ﷺ:

«وأتبع السيئة الحسنة تمحها»[3].

---

(١) مع العارفين ص (١٠٠).

(٢) الإحياء (٣/ ٤٣٠).

(٣) رواه أحمد والحاكم عن أبي ذر والبيهقي في الشعب عن معاذ، وحسنه الألباني كما في (ص ج ص) رقم (٩٦).

* قلوب يعلم كل منها أن من (العجيب أنك تُعاقِبُ أهلك وولدك على ما يصدر منهم من سوء خلق، وتقصير في أمرك، ثم تهمل نفسك، وهي أعظم عدو لك، وأشد طغيانًا عليك، وحذرك من طغيانها، أعظم من حذرك من طغيان أهلك، فإن غايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا، ونفسك هي التي تنغص عليك عيش الآخرة، فهي بالمعاقبة أولى من غيرها) [1].

وإليك أخبار الثأر والانتقام:

أ- جهاد ثاري:

يعلمه لنا عبد الله بن قيس حيث يقول: كنا في غزاة لنا وحضر العدو وإذا رجل أمامي يخاطب نفسه، ويقول: أي نفسي ألم أشهد كذا وكذا فقلت لي: أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت؟!! والله لأعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك، فحمل الناس على الكفار فكان أول المحاربين ثم إن المسلمين انكشفوا فكان في موضعه حتى انكشفوا مرات وهو يقاتل ثابت لا يلين، والله ما زال دأبه حتى رأيته صريعًا به ستون طعنة.

ب- صدقة ثارية:

يهز بها أبو طلحة كل حريص على الدينار والدرهم هزًا شديدًا لا بيده، بل بمجرد سماع هذا الخبر:

اشتغل قلبه في صلاته بطائر في حائطه، فتصدق بالحائط كله كفارة له، ويسابقه الفاروق عمر في نفس الميدان حيث شغله حائط

(١) الإحياء (٤/ ٤٣٢).

ثمنه ٢٠٠ ألف درهم عن صلاة العصر فتصدق به، وكان يضرب نفسه بالدرة ويقول: ما حملك على أن صنعت كذا يوم كذا وكذا؟

جـ- قيام ثاري:

لكن (الابن) عبد الله بن عمر ﷺ كان له مسلك آخر في معاقبة النفس والثأر من شيطانه حيث كان إذا فاتته صلاة العشاء جماعة قام ليلتها حتى يطلع الفجر.

د- تنويع مسالك الثأر:

لكن الشيطان ينتبه فيلبس درعًا تتكسر عليه سهام الثأر الإيماني، فوجب التنويع. قال عبد الله بن وهب القرشي: جعلت على نفسي كلما اغتبت إنسانًا صيام يوم فهان عليّ، فجعلت عليها كلما اغتبت إنسانًا صدقة درهم فثقل عليّ وتركت الغيبة.

رابعًا: قلب لا يعرف التثاؤب

والصفة الرابعة والأخيرة هي عدم معرفة هذا القلب للتثاؤب، وهكذا كان النبي ﷺ حيث إنه لم يتثاءب قط، وفي هذا إيماءة لطيفة إلى ما كان عليه من عزيمة صادقة وإرادة نافذة، كيف لا وهو غرة أولى العزم من الرسل.

وما علينا بعد أن عرفنا ديدنه إلا أن نسلك طريقه، بذلك أمرنا ربنا فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧]، فإن خالفنا النهج وحِدْنَا عن الطريق ورغنا روغان الثعالب كان الوعيد: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

كان قلب الإمام ابن الجوزي من هذا النوع من القلوب، كانت الخواطر تأتيه في أوقات راحته فإن تركها تركته، لكن الهمة العالية تأبى عليه ذلك فينفض تراب النوم وغبار الكسل ويصطاد الخاطرة قبل هروبها، ويقيدها قبل فكاكها متمثلاً قول الشاعر:

العلم صيدٌ والكتابة قيده ... قيِّد صيودك بالحبال الواثقة

فمن الحماقة أن تصيد غزالة ... وتفكّها بين الخلائق طالقة

ولأن السيل اجتماع النقط، فإن الخاطرة تلو الخاطرة صنعت كتابه القيِّم (صيد الخاطر).

لكن النوم فطرة فطرنا الله عليها، فسبحان من تفرد بالجلال والكمال ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وإن كان الناس ينامون إلا أن من يتقن فنَّ النوم منهم قليل، فيا ترى ما هو فن النوم؟

تناظر يومًا أبو موسى الأشعري ومعاذ بن جبل- رضي الله عنهما- «فقال أبو موسى: أنا أقوم أول الليل وأنام آخره، وقال معاذ: وأنا أنام أول الليل وأقوم آخره فأحتسب نومتي وأحتسب قومتي»[1].

فيعلمنا معاذ فن النوم، ويضع لنا هذه المعادلة المربحة:

عادة + نية صالحة= عبادة

وهكذا في سائر العبادات كالطعام واللباس والزواج بل في كل خطوة، وفي كل سكنة وإن كانت ارتداء حذاء، أو نظرة في مرآة، كما روى هشام بن عبد الملك عن عمر بن عبد العزيز: ما ظننت أن عمر

(١) تاريخ بغداد (٢/ ٣٧٥)- الخطيب البغدادي- ط دار الكتاب العربي.

خطا خطوة إلا وله فيها نية.

فهذه هي النفوس التي لا تعرف كيف تفتح فمها متثائبة من كثرة النوم، ذلك أن: من أراد الراحة والسكون فإن الموت والقبر يزوِّدانه منهما حتى يشبع.

- وتأمل إذا أكثرت النوم وآثرت الراحة قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح: ٧، ٨]، والمعنى: إذا فرغت من تبليغ دعوتك بالنهار ومن مجاهدة الباطل والصدع بالحق بين الناس، ثم جَنَّ عليك الليل فلا نوم ولكن انصب: أي قم لله منتصبًا بين يديه قائمًا ليلك مصليًا داعيًا مستغفرًا متزودًا لليوم التالي.

- وإليك المزيد واسمع حديث رسول الله ﷺ الذي وعى ما علمه ربه فقال: «**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها**»[1].

حديث محير: متى تثمر هذه الفسيلة، وقد توقف الزمن وقامت القيامة؟ ومن ذا الذي سيأكل منها وقد فنيت الدنيا والناس إما إلى جنة وإما إلى نار؟ والجواب: لا أحد، لكن رسول الله ﷺ يريد أن يربي فينا قلوبًا تبذر الخير دون انتظار الأجر إلا من الله بل دون أن ترى ثمرة عملها، قلوبًا بحق لا تعرف التثاؤب.

- وورَّثها النبي ﷺ أصحابه فلقد مرَّ رجل على أبي الدرداء ﷺ وهو يزرع جوزة فقال: أتغرس هذا وأنت شيخ كبير وهذه لا تطعم

---

(١) رواه البخاري في الأدب عن أنس كما في (ص ج ص) رقم (١٤٣٧) والسلسلة الصحيحة رقم (٩).

إلا في كذا وكذا عامًا؟! فقال أبو الدرداء: ما عليَّ أن يكون لي أجرها، ويأكل منها غيري.

عذر غير مقبول

فإن قدمت عذرًا بين يديك مفاده أن أبا الدرداء شيخ مُسِن يقف على شفير القبر فوجب عليه أن يجدَّ ويُطلِّق التاؤب، إن كان هذا قولك فنَّدناه بما ذكره الخطيب البغدادي عن طلب علي بن عاصم للحديث فقال: «كان غلامًا دفع إليه أبوه مائة ألف، وقال له: اذهب لا أرى لك وجهًا إلا بمائة ألف حديث.

خرج الغلام قال: خرجت إلى الكوفة أنا وهشيم لنلقى منصورًا (يقصد منصور بن زادان الثقفي الوسطي) فلما خرجت من واسط سرت فراسخ لقيني إما معاوية وإما غيره فقلت له: أين تريد؟ قال: أسعى في دين عليَّ. قال: فقلت: ارجع معي فإن عندي أربعة آلاف درهم أعطيك منها، فرجعت فأعطيته ألفين ثم خرجت، فدخل هشيم الكوفة بالغداة، ودخلتها بالعشي فذهب هشيم فسمع من منصور أربعين حديثًا، ودخلت الحمام فلما أصبحت مضيت فأتيت باب المنصور فإذا جنازة فقلت: ما هذه؟ قالوا: جنازة منصور فقعدت أبكي فقال لي شيخ هناك: ما يبكيك؟ قال: قلت: قدمت على أن أسمع من هذا الشيخ وقد مات. قال: أفأدلك على من شهد عُرس أُمِّ هذا؟ قلت: نعم، قال: اكتب: حدثني عكرمة عن ابن عباس... قال: فجعلت أكتب عنه شهرًا فقلت له: من أنت رحمك الله؟ قال: أنت تكتب عني منذ شهر ولم تعرفني؟ أنا حصين بن عبد الرحمن، وما

كان بيني وبين أن ألقى ابن عباس إلا سبعة دراهم، أو تسعة دراهم (كناية عن قربه منه) فكان عكرمة يسمع منه ثم يجيء فيحدثني»(١).

فانظر- حفظك الله- كيف تصدق الغلام بنصف ماله ثم يجد في طلب مائة ألف حديث ولسان حاله يقول:

ماتت الراحة فاقرأ عليها الفاتحة!!

هكذا كافاهم الله!!

بهذا وحده بيَّض الله وجوههم وأفاض عليهم من نوره مثل الحافظ الضياء أبو محمد المقدسي (كأن النور يخرج من وجهه، ضعف بصره من كثرة الكتابة والبكاء) (٢).

ومثل والد الإمام الرافعي حيث يروي الإمام عن بعض أحوال أبيه محمد بن عبد الكريم القزويني الرافعي: «حكى لي مؤذن المسجد وهو رجل صالح أن والدي خرج لصلاة العشاء، وكانت ليلة مظلمة. قال: فرأيت نورًا فحسبت أن معه سراجًا، فلما وصل لم أجد شيئًا فذكرت له، فلم يعجبه وقوفي على حاله وقال لي: أقبل على شأنك»(٣).

وعلى الطريق جهبذ آخر هو الإمام مالك، قال عبد الرحمن بن قاسم العتقي المصري- أحد أصحاب مالك:

«كنت آتي مالكًا فأسأله عن مسألتين، ثلاث، أربع، وكنت أجد

---

(١) سير أعلام النبلاء (٩/ ٢٥٣).

(٢) علو الهمة ص (١٦٨)- محمد إسماعيل المقدم- ط مكتبة الكوثر.

(٣) صفحات مشرقة من حياة السابقين ص (٣٥٠).

منه في ذلك الوقت انشراح صدر، فكنت آتيه في كل سحر، فتوسَّدت مرة عتبته، فغلبتني عيني فنمت، وخرج مالك إلى المسجد، ولم أشعر به، فركلتني جارية سوداء له برجلها، وقالت لي: إن مولاك قد خرج، ليس يغفل كما تغفل أنت، اليوم له تسع وأربعون سنة، قلما صلى الصبح إلا بوضوء العتمة»[1].

ظنت أن الإمام مالك مولاه وسيده وأنه عبده من كثرة اختلافه عليه كأنه لا يجد مهرًا يخطب به الحور غير هذا!!.

ولئن كان التاجر يطرب لسماع خشخشة دنانيره ولرؤية بريق ذهبه، ولئن كان أهل اللهو والطرب يلتذون بضرب الأوتار وعزف الألحان فإن لذة الإمام الشافعي وصفها فقال:

سهري لتنقيح العلوم ألذُّ لي	من وصل غانية وطيب عناق
وصرير أقلامي على صفحاتها	أحلى من الدَّوْكاء[2] والعشاق
وألذُّ من نقر الفتاة لدفها	نقري لألقي الرمل عن أوراقي
وتمايلي طربًا لحل عويصة	في الدرس أشهى من مُدامة ساق
أأبيت سهران الدجى وتبيته	نومًا وتبغي بعد ذاك لحاقي؟!!



(١) صفحات من صبر العلماء ص (٣٩، ٤٠)- العلامة أبو غدة- ط مكتب المطبوعات الإسلامية.

(٢) الدوكاء: الحجر الذي يسحق به الطبيب، والمراد بالدوكاء والعشاق هنا مقامان من المقامات الغنائية العراقية.

الفصل الرابع

كيف تجعل قلبك أسرع القلوب؟

أولاً: أن تفيء إلى واحات الإيمان.

ثانيًا: أن تعرف عقبات الطريق.

ثالثًا: أن تنفذ الوصايا العشر.

رابعًا: أن تعرف أي العمل أفضل.

ومضة

لما تنافس المتسابقون بالخيرات في كسب الحسنات، وعلو الدرجات، كان الحسد في حقهم من المباحات، قال ﷺ: **«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وأطراف النهار»** [متفق عليه].

أولاً: أن تفيء إلى واحات الإيمان

هذه الواحات لا توجد في الصحارى القاحلة، بل مكانها تلك النفوس التي تحولت إلى أراضٍ جدباء لجفافها بسبب ما أصابها من حرارة شمس المادية الحارقة، وحب الدنيا الطاغي، فكانت هذه الواحات لترطِّب القلوب المتسابقة، وتمدها بأسباب البقاء والنقاء، فليست استراحات نوم... إنها استراحات عون يحمل فيها القلب زاده الذي يسير به إلى الله، ذلك الزاد الذي بفقده يموت القلب فيخسر السباق، ويتخلف عن الركب... ركب عكاشة وأشباه عكاشة، فلا تمر الأسطر مرور النيام، ولكن حلِّق بقلبك فوق كل واحة، وتزود منها ثم انطلق إلى الواحة التي تليها.

والآن استعد.. الرجاء ربط الأحزمة فنحن على استعداد الهبوط في مطار الواحة الأولى ٥.... ٤.... ٣.... ٢..... ١.....

الواحة الأولى:

ذكر المـوت

سألنا متسابق فقال: لماذا اخترتم واحة ذكر الموت لتكون أول واحة يأوي إليها المتسابقون؟

فأجبناه وقلنا: لأن الرسول ﷺ كذا فعل، ونحن لا قدوة لنا غيره، ولا أسوة لنا سواه، واسمع معنا ما رواه **سهل بن سعد الساعدي** رضي الله عنه، قال سهل: «مات رجل من أصحاب النبي ﷺ فجعل

أصحاب الرسول ﷺ يثنون عليه ويذكرون من عبادته، ورسول الله ساكت، فلما سكتوا قال: «**هل كان يكثر ذكر الموت**»؟ قالوا: لا. قال: «**فهل كان يدع كثيرًا مما يشتهي؟**» قالوا: لا. قال: «**ما بلغ صاحبكم كثيرًا مما تذهبون إليه**»[(١)].

ما سأل رسول الله ﷺ عن صلاة ولا صدقة ولا صيام، إنما سأل عن الأهم فالمهم: ذكر الموت أولاً ثم بعده كل شيء.. كل شيء.

المتسابقون الأذكياء فقط هم الذين يملئون حقائبهم القلبية من هذه الواحة- الأذكياء- هكذا وصفهم رسول الله ﷺ، يقول ابن عمر: «أتيت النبي ﷺ عاشر عشرة، فقام رجل من الأنصار فقال: يا نبي الله من أكيس الناس؟ قال: «**أكثرهم ذكرًا للموت وأكثرهم استعدادًا للموت، أولئك الأكياس، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة**»[(٢)].

ومن هؤلاء الأكياس: جارية الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك الذي نظر إلى نفسه يومًا في المرآة – وكان شابًّا آلت إليه الخلافة – فأصابه الفخر والخيلاء، فلمحت ذلك منه جاريته-وكانت عاقلة – فقالت له:

أنت نِعمَ المتاعُ لو كنتَ تبقى … غيرَ أنْ لا بقاءَ للإنسانِ

ليس فيما بدا لنا منك عيبٌ … كان في الناس غيرَ أنك فانِ

لكن أي متسابق فذ يخشى أن يفارق ذكر الموت قلبه فيجعل

(١) رواه الطبراني بإسناد حسن، وأورده القرضاوي في المنتقى رقم (٢٠٧٩).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبراني في الصغير بإسناد حسن، وأورده القرضاوي في المنتقى رقم (٢٠٧٨).

عليه قفلاً إيمانيًّا يضمن عدم تسرب ذكر الموت منه، يعلمنا صناعة هذه الأقفال حداد إيماني بارع هو **الربيع بن خثيم** حيث يقول: «لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة واحدة لفسد»[1].

لكن الشيطان يتحفز فإذا غفل الإنسان لحظة سرق المفتاح وتسلل إلى القلْب فتسري الغفلة في الأوصال فوجب التنبيه عن طريق برقية من **عبد الله بن مسعود** ﷺ جاء فيها:

«إنكم في ممر الليل والنهار، في آجال منقوصة، وأعمال محفوظة، والموت يأتي بغتة، من زرع خيرًا يوشك أن يحصد رغبة، ومن زرع شرًّا يوشك أن يحصد ندامة، ولكل زارع مثل ما زرع »[2].

لغز الشاطبي

كان الإمام الشاطبي صاحب كتاب (الموافقات) كثيرًا ما يتمثل هذه الأبيات:

أتعرف شيئًا في السماء يطير	إِذا سار هاج الناس حيث يسير
فتلقاه مركوبًا وتلقاه راكبًا	وكل أمير يعتليه أسير
يحثُّ على التقوى ويُكره قربه	وتنفر منه النفس وهو نذير
فلم يُستزَر عن رغبة في زيارة	ولكن على رغم المزور يزور

هل عرفت الحل؟ إنه النعش، من امتطى صهوته كان أسيره، إذا رآه الناس قصر أملهم وزاد عملهم، ومع ذلك يكرهه الناس

---

(١) الإحياء (٣/ ٤٧٩).

(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٤٩٧).

وينفرون من رؤيته، بل ويتناسونه حتى يزورهم رغمًا عنهم.

رحم الله الإمام الشاطبي، كان كلما لمس غياب ذكر الموت عن القلوب أنشد لغزه وذكر نعشه، لأنه تعلم وعلم أن ذكر الموت هو الحياة، وأن الاتعاظ برؤية النعش على الأعناق هو السبيل إلى الفوز في هذا السباق.

وإذا كان الموت غائبًا عنك لحظة قراءة هذه الكلمات فلا بد للغائب من وصول، ولابد بعد الفراق من لقاء.

هكذا فهم الخليفة الرابع علي بن أبي طالب ﷺ حقيقة الموت فقال: «إن الدنيا قد ارتحلت مدبرة، وإن الآخرة قد ترحلت مقبلة»[1]، وإذا كان الأمر كذلك فما أسرع الملتقى وما أعجل الوصول.

والوصول إلى الموت يوصلك إلى لقاء الرب، فيومًا ما ستختلي بربك وتنفرد به لحظة الحساب، أما الأهل فينصرفون عنك إلى نُزَهِهم ومُتعِهم، فكيف تَرى علاقتك اليوم بمن تنفرد به غدًا؟!

فإذا كنت من أصحاب العزم الفتي والقلوب السباقة فما أحلى هذا اللقاء وما أشد الشوق إليه، مصداق ذلك قول رسول الله ﷺ: «من أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه»[2].

ولقد كان صحابة رسول الله ﷺ -كما أرادهم -يحبون لقاء الله،

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٧١)- ابن قيم الجوزية- ط دار الجيل..

(٢) رواه الشيخان وأحمد والترمذي عن عائشة وعن عبادة كما في (ص ج ص) رقم (٥٨٤٠).

يصفهم أبو عتبة الخولاني فيقول: «كان من صفة أصحاب رسول الله ﷺ أن لقاء الله أحب إليهم من الشهد (العسل في شمعه)، وكانوا يحبون الموت أكثر مما يحب أحدكم الصحة»[1].

من أجل هذا رحَّب معاذ بن جبل ﷺ عند احتضاره بالموت قائلاً له: «مرحبًا بالموت زائر مغيب، وحبيب جاء على فاقة»[2]، كأنه يستقبل حبيبًا طال انتظاره وزاد شوقه إليه.

أنا لا أخاف الموت بل هو بغيتي ... ووسيلتي لتحقق الغايات

فبه يُتاح لي اللقاء وتزدهي ... روحي برؤية سيد القدوات

وليس هذا بعجيب على من سلك هذا الطريق، لأن (من كان في سجن التُّقى فالموت يطلقه، ومن كان هائمًا في وادي الهوى فالموت له حبس يوثقه، موت المتعبدين عتق لهم من استرقاق الكد ورفق بهم من تعب المجاهدة، وموت العصاة سبي يرِقّون به لطول العذاب)[3].

وسائل ذكر الموت

الوسيلة الأولى: زيارة القبور ودفن الموتى:

عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها، فإنها تُرِقُّ القلب وتُدمِع العين وتُذكِّر الآخرة»[4].

ويقدم لنا الرسول ﷺ الأنموذج العملي، فيروي البراء بن

(١) تنبيه المغترين ص (٢٧).
(٢) مختصر منهاج القاصدين ص (٤٩٦).
(٣) المدهش ص (٢٤١).
(٤) رواه الحاكم في المستدرك عن أنس كما في (ص ج ص) رقم (٤٤٦٠).

عازب ﷺ فيقول: «بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذ بصر بجماعة فقال: «علام اجتمع هؤلاء؟». قيل: على قبر يحفرونه. قال: ففزع رسول الله ﷺ فبدر بين يدي أصحابه مسرعًا حتى انتهى إلى القبر فجثا عليه، قال: فاستقبلته من بين يديه، لأنظر ما يصنع، فبكى حتى بلَّ الثرى من دموعه، ثم أقبل علينا، قال: «أي إخواني! لمثل هذا اليوم فأعدوا»[1].

وينتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ويرث السمت من بعده علي بن أبي طالب ﷺ، فعن كميل بن زياد: خرج علي يومًا إلى المقابر فلما أشرف عليها قال:

«يا أهل القبور.. يا أهل البلى.. يا أهل الوحشة .. ما الخبر عندكم؟ فإن الخبر عندنا: قد قُسِّمت الأموال، وأيتمت الأولاد، واستبدلت الأزواج... فهذا الخبر عندنا فما الخبر عندكم؟ ثم التفت إليَّ فقال: يا كميل... لو أُذِن لهم في الجواب لقالوا: إن خير الزاد التقوى.. ثم بكى. وقال: يا كميل.. القبر صندوق العمل، وعند الموت يأتيك الخبر»[2].

أما معدَّل الزيارة فبحسب قسوة قلبك وغفلتك؛ كلما قسا القلب زرت، وكلما سهوت ذهبت، كما كان يفعل الإمام الحافظ الفقيه أبو عبد الله صفوان بن سليم، فعن محمد بن صالح التمار قال:

«كان صفوان بن سليم يأتي البقيع في الأيام فيمُرُّ بي، فاتبعته ذات

---

(١) رواه أحمد وابن ماجة، وحسنه الألباني في (ص ج ص) رقم (٢٦٥٦) والسلسلة الصحيحة رقم (١٧٥١).

(٢) حياة الصحابة للكاندهلوى (٣/ ٣٠٧، ٣٠٨).

يوم، وقلت: لأنظرنَّ ما يصنع، فقَنَّع (غطَّى) رأسه، وجلس إلى قبر منها، فلم يزل يبكي حتى رحِمته، وظننتُ أنه قبر بعض أهله، ومرَّ بي مرة أخرى، فاتَّبعته، فقعد إلى جنب قبر غيره، ففعل مثل ذلك، فذكرت ذلك لمحمد بن المنكدر، وقلت: إنما ظننتُ أنه قبر بعض أهله، فقال محمد: كلهم أهله وإخوته، إنما هو رجل يُحرِّك قلبه بذكر الأموات كلما عَرَضت له قسوة»[1].

وأما حضور الجنائز فيخبرنا أبو يحيى أسيد بن حضير ﷺ بما يفكر فيه كلما شهد جنازة فيقول: ما شهدت جنازة فحدثتني نفسي بشيء سوى ما هو مفعولٌ به، وما هو صائر إليه، ولما مات أخو مالك بن دينار خرج مالك في جنازته يبكي ويقول: والله لا تقر عيني حتى أعلم إلى ماذا صرت ولا أعلم ذلك ما دمت حيًّا.

ولما مرَّت جنازة بالحسن قال: يا قوم!! لو أن هذا الرجل أخذه سلطانكم لفزعتم .. أليس كذلك؟ قالوا: بلى. قال: فقد أخذه ربكم فلم لا تفزعون!!

وإذا ما نفَّذ المتسابق وصيتنا وشهد الجنائز أحيا الله قلبه من موات فبكى لا على الميت بل على نفسه، كما فعل إبراهيم الزيات لما نظر إلى أناس يترحمون على ميت قال لهم: لو ترحَّمتم على أنفسكم لكان خيرًا لكم، إنه نجى من أهوال ثلاثة: وجه ملك الموت وقد رآه، ومرارة الموت وقد ذاق، وخوف الخاتمة وقد أمن.

ويبكي على الموتى ويترك نفسه ويزعم أن سيطول فيها بقاؤه

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٦٤).

ولو كان ذا رأي وعقل وفطنة   لكان عليه لا عليهم بكاؤه

ومع تشييع الموتى يأتي تغسيل الموتى ليمثِّل الجرعة المضاعفة لعلاج القلوب القاسية وتهذيب الطباع المتكبِّرة، ونهضة متوثبة لحيازة السبق والفوز بجائزة أعلن عنها رسول الله ﷺ دون أن يتقدَّم لها الكثير؛ جائزة:

«من غسَّل ميتًا فستره ستره الله من الذنوب، ومن كفَّنه كساه الله من السندس»[1].

الوسيلة الثانية: مشاهدة المحتضرين:

هكذا ذكروه فأحيا الله قلوبهم، فإن لم يكفك ما قلنا وطلبت المزيد أجبناك إلى طلبك وقلنا:

إن مشاهدة المحتضرين، وملاحظة سكرات الموت ونزعاته، مما يقطع عن النفوس لذاتها، ويطرد عن القلوب مسراتها، ويحرم الأجفان من النوم، والأبدان من الراحة، ويبعث على العمل، ويزيد في الاجتهاد والتعب، والكيِّس من ملأ كل ذرة من جسده من هذا الزاد، فيكفيه في سفرته الإيمانية حتى يوصله إلى قبره، تمامًا مثل ما فعل الحسن البصري، فقد ذكر عنه أنه دخل على مريض يعوده، فوجده في سكرات الموت، فنظر إليه في كربه وشدة ما نزل به، فرجع إلى أهله بغير اللون الذي خرج به من عندهم، فقالوا له: الطعام يرحمكم الله. فقال: يا أهلاه، عليكم طعامكم وشرابكم فوالله لقد رأيتُ مصرعًا لا أزال أعمل له حتى ألقاه.

أما نحن فإن حضرنا قريبًا لنا قد حضرت منيته ما تكلمنا إلا في

(١) رواه الطبراني عن أبي أمامة، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم: ٦٤٠٣.

ميراثه، وكم سيخلف لمن بعده، وما فكرنا إلا في الحيلة التي ننال بها بعض تركته.

تالله لو عاش الفتى في دهره	ألفًا من الأعوام مالك أمره
مستمتعًا فيها بكل نفيسة	متلذذًا فيها بنعمة عصره
لا يعتريه السُّقم فيها مرة	كلا ولا ترِد الهموم بباله
ما كان هذا كله في أن يفي	بمبيت أول ليلة في قبره

الوسيلة الثالثة: طريقة أبي إسحاق:

وتختلف أساليب التذكير بالموت من متسابق لآخر، فإن شئت أخذت بطريقة أبي إسحاق الجبنياني حيث وُجدت بعد موته رقعة تحت حصيرة مكتوبة بخطه: «رجل وقف له هاتف قال له: أحسن عملك، فقد دنا أجلك»، قال ولده عبد الرحمن: إذا كان قصَّر في العمل أخرج الرقعة فنظر فيها ورجع إلى جِدِّه.

ما زال يلهج بالرحيل وذكره	حتى أناخ ببابه الجمَّال
فأصابه مستيقظًا ومشمِّرا	ذا أهبة لم تُلهه الآمال

أو تأخذ بوصية الشبلي الذي نبّه المقصِّرين وأيقظ الغافلين برسالة رقيقة لا تجرح مشاعر أحد، اتهم فيها نفسه دون أن يتهمنا، وعاتب قلبه لا قلوبنا، فقد أوصى أن يُكتَب على قبره:

«تركتُ الجنة وليس لمثلها قيمة، وتعلّقتُ بالدنيا وليس لها بقاء، وضيَّعت العمر وليس له بدل، واتَّبعت النساء وليس لهن وفاء، وجفوتُ الرب وليس عنه عوض».

الوسيلة الرابعة: وصية الإمام:

وإن شئت أخذت بوصية الإمام الشهيد حسن البنا حيث خطب يومًا، وكان يتحدث عن الآخرة فقال: «ليذكر كل منكم ميتًا عزيزًا عليه، وليسأل نفسه: ترى .. ألن نلتقي مرة أخرى؟! وسيجد الجواب في أعماقها: بل سنلتقي، وذلك هو برهان الآخرة»[1]، وأنعم بها من وصية يا إمام.

والآن تنفيذًا لوصيته: أغمض عينيك وجُل بخاطرك فيما مضى، وتذكر آخر ميت ودعته ممن تعرفه، واسأل نفسك: أين ستلقاه بعد اليوم؟

هل هذه هي النهاية؟. الموت.. العظام.. الرفات... ثم الذر مع الرياح؟ كلا! قد قالها يومًا أمية بن خلف: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس: ٧٨]، فأمر الله محمدًا ﷺ أن يجيبه: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

والآن بعد أن تذكرت هذا الفقيد واستحضرت صورته في ذهنك كن على يقين أنك لن تقابله إلا في:

(١) **الجنة:** حيث لقاء الإخوان المتحابين... في جنات النعيم على سرر متقابلين: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، بما قدمتم وما سابقتم حتى وصلتم، فهذا لقاء تستحث له الخطا مهرولاً، وأنت في الدنيا تبغي اللحاق بهذا الأخ الصالح تشتاق إليه وإلى لقائه مثلما اشتاق شيخ أهل الشام أبو عبد الله **خالد بن معدان**، كان يستقبل

---

(١) مع العارفين ص (١٨٧).

فراشه كل ليلة وهو في شوق شديد إلى الرحيل، رائع الصدق في ذكر أحبابه الذين سبقوه إلى الله يسميهم واحدًا واحدًا ويقول: «هم أصلي وفصلي، وإليهم يحنُّ قلبي، طال شوقي إليهم، فعجِّل ربي قبضي إليهم»[١]، فإذا ما استجاب الله دعاءه، وقبضه إليهم كان اللقاء المرتقب يوم القيامة في ظل عرش الرحمن الذي أخبر بنفسه عن ذلك فقال: «**حقَّت محبتي على المتحابين، أظلهم في ظل العرش يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظلي**»[٢].

ويتم عقد هذا اللقاء على منابر من نور صنعت لهم وحدهم دون غيرهم، يراها النبيون والشهداء فيتمنون مثلها، وعد الله الذي قال: «**المتحابون في جلالي لهم منابر من نور، يغبطهم النبيون والشهداء**»[٣]، فابشروا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١].

وأهل الجنة لهم أمارات وعلى رءوسهم تيجان وإشارات، وشهادة الناس بصلاحهم في الدنيا جواز مرور لهم إلى الجنة وشافع لهم عند الله، ولعل من بركاتها أنها تثير الغيرة التنافسية والتسابق الإيماني في أفئدة العقلاء. نظر الحسن إلى جنازة يزدحم الناس عليها فقال: ما لكم تزدحمون؟ ها هي سارية المسجد.. اقعدوا تحتها واصنعوا ما كان يصنع حتى تكونوا مثله!!

ومن هؤلاء رجل رحل اسمه عبد الله، غبطه الناس على صالح أعماله وجميل خصاله، وطلبوا الوصول إلى ما وصل إليه فأنشدهم

---

(١) مع العارفين ص (١٠١).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا عن عبادة بن الصامت كما في (ص ج ص) رقم (٤١٩٦).

(٣) رواه الترمذي عن معاذ كما في (ص ج ص) رقم (٤١٨٨) وتخريج المشكاة رقم (٥٠١١).

صاحبٌ له على قبره بعد أن دفنه:

يا من يؤمِّل أن تكون خصاله ... كخصال عبد الله أنصِت واسمع

فلأنصحنك في المروءة والذي ... حجَّ الحجيج إليه فاقبل أو دع

اصدق وعفَّ وبرَّ وانصر واحتمل ... واحلم وكفَّ ودارِ واصبر واشجع

(٢) النار: وبئس القرار حيث التلاوم والعتاب، ومقاساة العذاب، هنالك تعض أصابع الندم حيث لا ينفع الندم ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولاً﴾ [الفرقان: ٢٧- ٢٩].

وإذا كان عموم البلاء في الدنيا، وكثرة المصابين يخفف وقع الآلام على النفس كما قالت الخنساء تنعي أخاها صخرًا:

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلتُ نفسي

فقد حيل بينك وبين هذا في الآخرة، فالدار غير الدار والحال غير الحال، ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩].

(٣) أن تكون في الجنة وهو في النار: تنظر إليه، وأنت مشفق وجل مما تراه من حاله، وقد كشف الحجاب بينك وبينه، ولولا أن الله تعالى عرفه لك ما عرفته؛ لما تغير من لونه وهيئته فتناديه: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُواْ نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤].

وياله من تبكيت يقطع نياط القلب ويحرقه بالحسرة والندامة، فتعمل هذه الكلمات أثرًا هو أشد من شرب الصديد وصب الحميم، أما كان يكفيهم تبكيت خزنة النار وهم على عتبة جهنم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠]، ثم يأتيهم تبكيت المؤمنين، عذاب فوق عذاب، وظلمة فوق ظلمة، أعاذنا الله من هذا المصير.

(٤) أن تكون في النار وصاحبك في الجنة: تنظر إليه، وإلى ما حازه من نعيم ورضوان ترجوه وتتوسل إليه، والكلاليب المحماة تعمل أثرها في ظهرك، تناديه ومن معه من أهل الجنة ﴿أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠]، ولكن هيهات هيهات ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

وبعد هذا التنبيه العام وجب قراءة هذا الاستجواب الإيماني لتعد نفسك لآخر مثله ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، يوم تعلن نتيجة السباق، وصاحب هذا الاستجواب هو **عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية**.

كان **عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية** خِلاً وفيًا وصاحبًا نجيًا لعبد الملك بن مروان، فلما مات عبد الملك وتفرّق الناس عن قبره وقف عليه، فقال: أنت عبد الملك الذي كنت تعدني فأرجوك وتتوعدني فأخافك!! أصبحتَ وليس معك من مُلكِك غير ثوبيك، وليس لك

منه غير أربعة أذرع في عرض ذراعين!! ثم انقلب إلى أهله واجتهد في العبادة حتى عاتبه بعض أصحابه في ذلك، فاستجوب من عاتبه قائلاً: أسألك عن شيء تصدقني عنه.

قال: نعم.

قال: أخبرني عن حالتك التي أنت عليها .. أترضاها للموت؟!

قال الرجل: اللهم لا.

قال: فهل بعد الموت دار فيها مستعتب؟

قال: لا.

قال: أفتأمن أن يأتيك الموت على حالك التي أنت عليها؟

قال: اللهم لا.

قال: حال ما أقام عليها عاقل»[١].

فالعاقل هو الذي يتوب قبل الموت بأن لو قيل له: إنك تموت الساعة فإنه لا يجد عنده ذنبًا يحتاج إلى التوبة منه فيسأل الإمهال من أجله.

فهم هذا أبو نصر بشر بن الحارث فكان إذا ذُكِر عنده الموت يقول: «ينبغي لمن يعلم أنه سيموت أن يكون بمنزلة من جمع زاده فوضعه على رحله، ولم يدع شيئًا مما يحتاج إليه إلا وضعه عليه»[٢]، لذا قبل سفرك وجب أن تسأل نفسك: هل نسيتُ من زادي شيئًا؟

---

(١) صفة الصفوة (٤/ ٢١٤) بتصرف - ط دار المعرفة - بيروت

(٢) التبصرة (١/ ٢٧٨).

وهي نفس وصية أبي حازم سلمة بن دينار الذي قال عنه الذهبي: لم يكن في زمانه مثله، وكأن أبا حازم قد استنسخ وصية بشر السابقة بروحها وحروفها، وذلك حين قال لمن سأله النصيحة:



«كُلُّ ما لو جاءك الموت عليه فرأيته غنيمة فالزمه، وكُلُّ ما لو جاءك الموت عليه فرأيته مصيبة فاجتنبه»[1].

والآن لنا موعد مع الظلال الوارفة والجنات الناعمة التي توجد في:

الواحة الثانية:

الخوف من الله

حمدًا لله على السلامة.. وصلنا الواحة الثانية وهي واحة كثيفة الأشجار كثيرة الخيرات، فتزود منها ما استطعت.

أيها المتسابق الكريم: اعلم أن كل واحد إذا خفت منه هربت منه إلا الله، فإنك إذا خفت منه هربت إليه، فهو المخوف والمرجوُّ في آن واحد، فالخائف من الله هرب من ربه إلى ربه ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات: ٥٠].

هذا الخوف لو سلك طريقه تجار الدنيا ممن يحذرون الفقر لنجوا، قال فقيه القلوب يحيى بن معاذ: «مسكين ابن آدم .. لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة»[2].

(١) الإحياء (٤/ ٢٨).
(٢) الإحياء (٤/ ١٦٩).

ومن آثار الخوف من الله أنه ينبت من الغفلة صحوة، ويبدل السيئة حسنة، بل وفوق ذلك يظل أثره ينمو في قلب المتسابق حتى تلد السيئة حسنتين، قال يحيى بن معاذ: «ما من مؤمن يعمل سيئة إلا ويلحقها حسنتان: خوف العقاب ورجاء العفو»[1].

وإليك هذه المقابلة الصحفية مع فاطمة بنت عبد الملك زوج الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز: «كان عمر أعظم أموي ترفًا وتملكًا، غُذِّي بالملك ونشأ فيه، لا يُعرف إلا وهو تعصف ريحه فتوجد رائحته في المكان الذي يمر فيه، ويمشي مشية تسمى العمرية، فكانت الجواري يتعلمنها من حسنها وتبختره فيها»[2]، فلما ولي الخلافة وتحمل الأمانة علمه الخوف من الله السبيل لبذل الجهد حتى يلحق بقافلة السبعين ألفًا، ولنترك الكلام لزوجته فاطمة تصف حاله وتقول:

«ما رأيت أحدًا أكثر صلاة ولا صيامًا منه، ولا أحدًا أشد فرقًا (خوفًا) من ربه منه، كان يصلي العشاء، ثم يجلس يبكي حتى تغلبه عيناه، ثم ينتبه فلا يزال يبكي حتى تغلبه عيناه، ولقد كان معي على الفراش فيذكر الشيء من أمر الآخرة فينتفض كما ينتفض العصفور من الماء ويجلس فأطرح عليه اللحاف»[3].

وبلغ الخوف من عمر مبلغًا عجيبًا، فعن أبي عبيدة عقبة بن نافع أنه دخل على فاطمة بنت عبد الملك فقال: ألا تخبريني عن عمر؟ قالت: «ما أعلم أنه اغتسل من جنابة ولا احتلام منذ استُخلِف»[4].

---

(١) الإحياء (٤/ ١٧٠).

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ص (٣٢، ٣٣)- ابن عبد الحكم- ط دار الفضيلة.

(٣) الزهد لابن المبارك ص (٢٠٠).

(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣٦).

هذا في بيته، أما بين الناس فينقله لنا ابن عبد الحكم في كتابه «سيرة عمر بن عبد العزيز»: «قرأ عمر بن عبد العزيز بالناس ذات ليلة ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ [الليل: ١]، فلما بلغ ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤]، خنقته العبرة فلم يستطع أن ينفذها، فرجع حتى إذا بلغها خنقته العبرة، فلم يستطع أن ينفذها فتركها وقرأ سورة غيرها»[1].

خوف يفرض على المتسابق حقائق يبسطها له أحمد بن حرب في كلمات قصار لكنهن جوامع:

من يعرف أن الجنة تُزيَّن فوقه، والنار تُسعَّر تحته كيف ينام بينهما؟!!

ومن ميدان التذكير بالقول إلى ميدان التذكير بالضرب إن كانت النفس قد ملت سماع المواعظ واعتادت النوم والإمام يخطب، فهذا سيد التابعين وزاهد العصر أبو مسلم الخولاني فقد علق في بيته سوطًا يخوف به نفسه يقول: قومي فوالله لأزحفن بك زحفًا حتى يكون الكلل منك لا مني، فإذا دخلت الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه قائلاً: أنتِ أولى بالضرب من دابتي.

فضل واحة الخوف

علم الأفذاذ فضل هذا الواحة وبركة ثمارها فاستزادوا منها ونهلوا من معينها، فزاد حزنهم وهطلت دموعهم وسالت أودية بقَدَرها، حتى جاءهم البشير: «وعزتي لا أجمع لعبدي أمنين ولا

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص (٥٨).

خوفين، إن أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع عبادي، وإن هو خافني في الدنيا أمّنته يوم أجمع عبادي»[١]، وتتوالى الأعطيات الربانية والمنح الإلهية يسوقها لنا رسول الله ﷺ فيقول: «لا يلج أحد بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع»[٢].

لا يلجها بل لا يكاد يقترب من أبوابها حتى يصير آمن الناس غدًا، سُئل يحيى بن معاذ: من آمن الناس غدًا؟ قال: «أشدهم خوفًا اليوم»[٣].

ولربما كان الرجل من أهل النار فجاءت دمعة في ميزانه فثقلته فيدخل الجنة، فعن عبد الرحمن بن سمرة ﷺ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في صفَّة المدينة فقال: «إني رأيت البارحة عجبًا.. رأيت رجلاً من أمتي هوى في النار فجاءته دموعه التي بكى بها في الدنيا من خشية الله فأخرجته من النار»[٤].

وليست النجاة من النار فحسب، بل الفوز بالجنة ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، ومن وراء هذه الجنة جنة أخرى ليتضاعف سرورك بالتنقل من واحدة إلى الأخرى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ

---

(١) رواه ابن حبان وأبو نعيم عن شداد بن أوس، وحسنه الألباني في (ص ج ص) رقم (٤٢٠٨).

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ١٦٢).

(٣) رواه النسائي والترمذي وأحمد واللفظ له، وحسنه الألباني في (ص ج ص) رقم (٦٧٥٥).

(٤) رواه الطبراني والترمذي عن عبد الرحمن بن سمرة كما في الجامع الصغير رقم (٢٦٥٢)، وقال الحافظ العراقي: سنده ضعيف، لكن قال ابن تيمية: أصول السنة تشهد له.

مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

فعن عبد الله بن قيس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال فيها: «جنتان من فضة آنيتها وما فيها، وجنتان من ذهب آنيتها وما فيها، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»[1].

فإن كنت ممن يخاف فهناك مظنة الخير وفرصة النجاة وأمل التوفيق، وإن كنت ممن لا يخاف ردَّدنا كلام سالم صاحب عمر بن عبد العزيز لما دخل عليه وقد ولي الخلافة، قال عمر: يا سالم إني أخاف أن لا أنجو. قال سالم: «إن كنت تخاف فنعما، لكني أخاف عليك أن لا تخاف»[2].

خوف مُزيَّف

لكن خوفًا لا يتبعه عمل، وحسرة لا تولد حركة، لهو خوف مزيف وحسرة كاذبة وحجة على صاحبها لا حجة له.

لأن «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل»[3] أدلج: سار أول الليل، وهي كناية عن التشمير في الطاعة، فهو خوف يدفعك إلى ظمأ النهار ومناجاة الأسحار واتباع ذلك كله بالاستغفار، بهذا تلحق بالركب و إلا مكانك لن تبرحه.

(١) رواه الشيخان وابن ماجة عن أبي هريرة، وحسنه الألباني في (ص ج ص) رقم (٦٧٥٥).

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ص (١٢٦)- ابن الجوزي- دار ابن خلدون.

(٣) رواه الترمذي والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة كما في (ص ج ص) رقم (٦٠٩٨).

يا آمنًا مع قبح الفعل منه، هل
أتـاك توقيـع أمـنٍ أنـت تملكـه؟
جمعتَ شيئين أمنًا واتباع هوى
هـذا وإحـداهما في المـرء تهلكـه
والمحسنون على درب المخاوف قد
سـاروا وذلـك درب لسـت تسـلكه
فرّطتَ في الزرع وقت البذر من سفه
فكيف عند حصاد الناس تدركه
لكن ترى مم كان هذا الخوف كله؟

نجيبك فنقول: «من لم يشاركهم في هواهم ويذُق حلاوة نجواهم لم يَدْرِ ما الذي أبكاهم، من لم يشاهد جمال يوسف لم يَدْرِ ما الذي آلم قلب يعقوب»[1].

فاعلم- حفظك الله- أن هذا خوف من:

(١) سوء الخاتمة:

عن سهل بن سعد ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إن العبد ليعمل عمل أهل النار وإنه من أهل الجنة، ويعمل عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنما الأعمال بالخواتيم»[2] ولذلك كان أكثر دعاء النبي ﷺ: «يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك»[3].

وتظل هذه الصفحة عالقة به ﷺ في كل وقت وحين حتى في

(١) لطائف المعارف ص (٤٣).
(٢) رواه الشيخان عن سهل بن سعد كما في (ص ج ص) رقم (١٦٢٠).
(٣) رواه الترمذي والحاكم عن أنس كما في (ص ج ص) رقم (٧٨٦٤).

يمينه، فعن ابن عمر قال: كانت يمين النبي ﷺ: «لا ومقلِّب القلوب»[1]، فقيل له في ذلك؟ فقال: «إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام، ومن شاء أزاغ»[2].

وهكذا كان النبيون من قبل، فهذا خليل الرحمن إبراهيم يدعو: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، ويوسف يناجي ربه: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ [يوسف: ١٠١]، فإذا كان هذا حال رسل الله وهم أكرم الخلق على الله وأعظمهم درجة، فكيف بمن لا يساوون في جوارهم ذرة من تراب، أليسوا إلى هذا الخوف أحوج؟!

كم من مُتسلِّق جبل لما اقترب من بلوغ قمته زلت قدمه فهوى إلى الهاوية، وكم من راكب بحر لمح بر الأمان من بعيد فلما أوشك على الوصول لعب به الموج فغرق، وما منا أحد إلا وهو واقع تحت هذا الخطر، فرُبَّ قلوب خاشعة وأعين دامعة وُقِّع في سجل أعمالها: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٣، ٤]، ودُوِّن في اللوح المحفوظ في حقها: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

وإليك خبر من صلى رُكيعات في جوف الليل، وصام يومًا أو يومين ثم ظنَّ بذلك أنه حجز مقعدًا في الجنان مع الحور الحسان:

«يُروى أنه كان بمصر رجل يلتزم مسجدًا للأذان والصلاة، وعليه بهاء العبادة وأنوار الطاعة، فرقي يومًا المنارة على عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصراني ذمي، فاطلع فيها فرأى ابنة صاحب

(١) رواه الشيخان وأبو داود كما (ص ج ص) رقم (٤٨٠٦).
(٢) رواه الترمذي عن أم سلمة كما في (ص ج ص) رقم (٤٦٧٧).

الدار، فافتُتِن بها وترك الأذان؛ ونزل إليها ودخل الدار فقالت له: ما شأنك؟ ما تريد؟ قال: أنت أريد. قالت: لماذا؟ قال لها: قد سَلَبْتِ لُبي وأخذت بمجامع قلبي، قالت: لا أجيبك إلى ريبة، قال لها: أتزوجك، قالت له: أنت مسلم وأنا نصرانية، وأبي لا يزوجني منك، قال لها: أتنصر. قالت: إن فعلت أفعل، فتنصَّر ليتزوجها، وأقام معهم في الدار، فلما كان في أثناء ذلك اليوم رقي إلى سطح كان في الدار فسقط منه ومات، فلا هو بدينه حظي ولا هو بها ظفر، فنعوذ بالله ثم بالله من سوء الخاتمة»[١].

ولهذا أوصانا النبي ﷺ: **«لا تعجبوا بعمل عامل، حتى تنظروا بم يُختم له»**[٢].

ويستل ابن القيم قبسًا من نور النبوة فيصوغه مثلاً يجلو به الظلمة ويرفع به الحجب عن الأبصار: إن الرجل ليعمل بطاعة الله ستين سنة فإذا كان عند الموت جار في الوصية، فيختم له بسوء عمله فيدخل النار، ثم يرص حروف نظريته قائلاً:

«العمر بآخره والعمل بخاتمته»[٣].

فإن استعصى عليك الفهم، وطلبت مزيد شرح، واستفاضة بلاغ قال لك: «من أحدث قبل السلام بطل ما مضي من صلاته، ومن فرَّط قبل غروب الشمس ذهب صيامه ضائعًا، ومن أساء في آخر عمره، لقي الله بذلك الوجه»[٤].

---

(١) التذكرة ص (١٤٧).
(٢) رواه الطبراني في الكبير عن أبي أمامة كما في (ص ج ص) رقم (٧٢٤٣).
(٣) الفوائد ص (٨٣).
(٤) السابق ص (٨٣، ٨٤).

هكذا خاف السلف

كان **سفيان الثوري**- رحمه الله- يشتد قلقه من خاتمته، وما سبق من علم الله تعالى، فيبكي ويجزع، فقيل له: «يا أبا عبد الله.. عليك بالرجاء فإن عفو الله أعظم من ذنوبك، فقال: أو على ذنوبي أبكي؟ لو علمت أني أموت على التوحيد لم أبال أن ألقى الله تعالى بأمثال الجبال من الخطايا»[(١)]، وقال ذات مرة: «ما أمن أحد على دينه إلا سُلِبه»[(٢)].

فإذا لم يُسْلَب التوحيد، ودخل قبره موحِّدًا فيا بشراه، بشره بذلك **أحمد ابن أبي الحواري** فقال: «إذا دخلت القبر ومعك الإسلام فأبشر»[(٣)].

قلوب الأبرار معلقة بالأعمال، أما قلوب المقربين فمعلقة بالخواتيم. قال بعض السلف: «لو كانت الشهادة على باب الدار والموت على الإسلام عند باب الحجرة لاخترت الموت على **الشهادة**، فقيل له: ولم؟ قال: لأني لا أدري ما يعرض لقلبي من المشاهدة فيما بين باب الحجرة وباب الدار فيغير التوحيد»[(٤)].

(٢) الخوف من عاقبة المعصية:

فالمعصية الواحدة قد يغفرها الله لك كما يملك أن يُعذِّبك بها فاسمع: «يا مغرورًا بالأماني: لُعِن إبليس وأُهبط من منزل العز بترك سجدة واحدة أُمر بها، وأُخرج آدم من الجنة بلقمة تناولها، وحُجب القاتل عنها (أي: الجنة) بعد أن رآها عيانًا بملء كف من دم، وأُمر

---

(١) قوت القلوب ص (٤٧١).

(٢) منهاج العابدين ص (٢٦٠).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٩٢).

(٤) قوت القلوب ص (٤٧١، ٤٧٢)، والمقصود بالشهادة: شهادة التوحيد.

بقتل الزاني أشنع القتلات بإيلاج قدر الأنملة فيما لا يحل له، وأمر بإيساع الظهر سياطًا (أي: الجلد) بكلمة قذف أو بقطرة من مسكر، وأبان عضوًا من أعضائه بثلاثة دراهم[1]، فلا تأمنه أن يحبسك في النار بمعصية واحدة من معاصيه ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾[الشمس: ١٥].

دخلت امرأة النار في هِرَّة، وإن الرجل المتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب»[2].

تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي ... درج الجنان ونيل فوز العابد

ونسيت أن الله أخرج آدمًا ... منها إلى الدنيا بذنب واحد

وقد تنسى ذنبك ولكن الله لا ينسى!!

نموت ونبلى غير أنَّ ذنوبنا ... إذا نحن متنا لا تموت ولا تَبلى

وإليك هذا الخبر الذي يبعثه لك أبو هريرة ﷺ ليبعث- لا الخوف فحسب- بل الرعب في قلبك فتتوقى أشواكًا كانت تعلق بأثوابك من ذي قبل دون أن تلقي لها بالاً، وآن لك بعد قراءة هذه السطور أن تنتبه.

عن أبي هريرة ﷺ قال: لما انصرفنا مع رسول الله ﷺ إلى وادي القرى ونزلنا بها أصيلاً مع مغرب الشمس، ومع رسول الله غلام له أهداه له رفاعة بن زيد، فوالله إنه ليضع رحل رسول الله إذ أتاه سهم غرب (طائش) فأصابه فقتله. فقلنا: هنيئًا له الجنة. قال: «**كلا والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أصابها يوم خيبر من الغنائم لم تصبها**

---

(١) أي أن الله أمر بقطع يد السارق بثلاثة دراهم يسرقها.

(٢) الفوائد ص (٨٣).

المقاسم لتشتعل عليه نارًا»[١].



سبحان الله... هذا رجل رآه الناس من أهل الجنة، وأصبح من خدم رسول الله يراه حيث يقوم ويصوم ويعظ الناس، يصب له ماء الوضوء، ويتبرك بآثار طهوره، ولكن ذلك كله لم يشفع له ومعصية واحدة صغيرة أدت به إلى النار، ولو كانت شملة من غنيمة لا يؤبه لها.

سمع رجل من أصحاب رسول الله هذا الحديث ورأى هذه الواقعة فقال: أصبت شراكين لنعلين لي (أي: من الغنائم)، فقال له النبي ﷺ: «**يُقدُّ (يقطع) لك مثلهما في النار**»، ولما كلف الرسول ﷺ أحد أصحابه بتقسيم الغنائم ولقي من التعب والحر الشديد ما جعله يعصب رأسه بعصابة من الغنائم يتقي بها الشمس، قال النبي ﷺ له: «**عصابة من النار عصبت بها رأسك**»، وتوفي رجل من أشجع فلم يصلِّ عليه وقال: «**إن صاحبكم غل في سبيل الله، فوُجِد في متاعه خرز لا يساوي درهمين**».

كلمات تقشعر لها الأبدان، وتهلع لها الأفئدة، ولهذا نوصيك ونقول: احذر معاصيك وتذكر أن أول الغيث قطرة، وإنما السيل اجتماع النقط، وما الكف إلا إصبع وإصبع، ومعظم النار من مستصغر الشرر، وإليك هذه الموعظة البليغة التي نطق بها **أبو الفرج ابن الجوزي**:

(١) رواه الشيخان والنسائي وأبو داود عن أبي هريرة كما في (ص ج ص) رقم (٦٩٤٢).

«غاب الهدهد عن سليمان ساعة فتواعده، فيا غائبًا عنا طول عمره.. أما تحذر غضبنا، خالف موسي الخضر في طريق الصحبة ثلاث مرات، فحلَّ عقد الوصل بكف ﴿هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨]، أما تخاف يا من لم يف لنا قط أن نقول في بعض زلاتك ﴿هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾»[1].

رحمك الله يا أسامة بن منقذ فطالما كنت تردِّد:

يا رب إنَّ إساءتي قد سَــوَّدت	بيد الكرام الكاتبين صحائفي
والخوف منك ومن عقابك مُقلقي	فارحم مخافة ذي الفؤاد الرَّاجف
من خاف شيئًا فرَّ منه هاربًا	واليك منكَ مَفَرُّ عبد خائف

(٣) الخوف من عدم القبول:

فعن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: «سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، قالت عائشة: الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «لا يا ابنة الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يُتَقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات»[2].

وفارق كبير بين من يسارعون في الخيرات ومن يسارعون في الآثام، هو ذات الفارق بين النور والظلمة.. بين السماء والأرض.. بين الحياة والموت، نطق بذلك إمام من أئمة الهدى هو الحسن

---

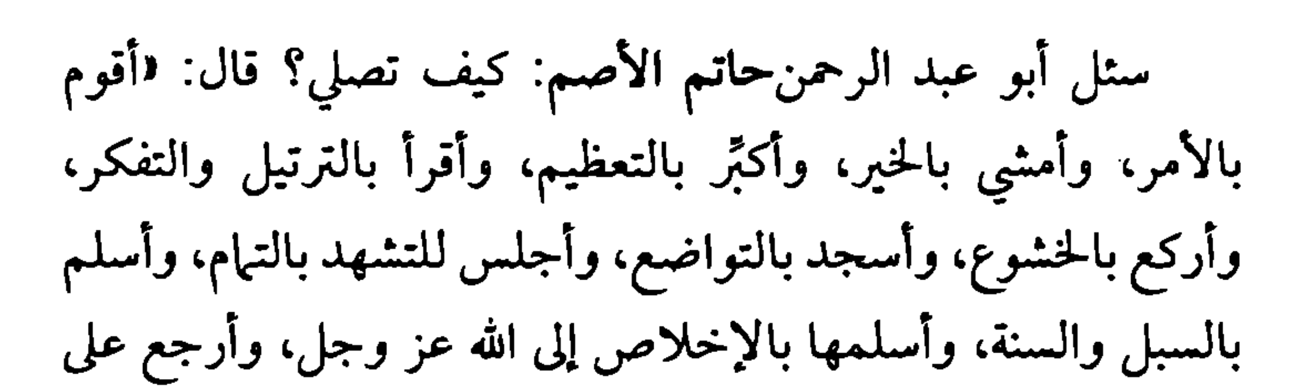
(١) المدهش ص (٤٩٠، ٤٩١).

(٢) رواه الترمذي وابن ماجة عن عائشة كما في السلسلة الصحيحة رقم (١٦٢).

البصري وهو يصف حال المؤمنين فقال: «اعملوا والله بالطاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن ترد عليهم، إن المؤمن جمع إحسانًا وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمنًا»[1].

أما غيره فكأنه أخذ صكًّا من الله بمغفرة ذنبه وحجز مقعده في الفراديس بمجرد أدائه ركعات ينقرها نقر الديكة بلا خشوع، وأوراد يردِّدها بلا روح.

قال أبو أيوب: قال لي أبو مالك يومًا: يا أبا أيوب لئن لم تأت الآخرة المؤمن بالسرور فقد اجتمع عليه الأمران: هَمُّ الدنيا وشقاء الآخرة، قلت: بأبي أنت وأمي وكيف لا تأتيه الآخرة وهو ينصب لله في الدنيا ويدأب، قال: يا أبا أيوب فكيف بالقبول؟ وكيف السلامة؟ ثم قال: كم من رجل يرى أنه قد أصلح شأنه، قد أصلح قربانه، قد أصلح همته، قد أصلح عمله، يجمع ذلك يوم القيامة ثم يضرب به وجهه ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].



فمن وجد الطاعة فلا يغتر، فربما فتح لك باب طاعته، وانهضك إلى خدمته، ولم يفتح لك باب القبول.

سئل أبو عبد الرحمن حاتم الأصم: كيف تصلي؟ قال: «أقوم بالأمر، وأمشي بالخير، وأكبِّر بالتعظيم، وأقرأ بالترتيل والتفكر، وأركع بالخشوع، وأسجد بالتواضع، وأجلس للتشهد بالتمام، وأسلم بالسبل والسنة، وأسلمها بالإخلاص إلى الله عز وجل، وأرجع على

(١) تهذيب مدارج السالكين ص (٢٦٩).

نفسي بالخوف.. أخاف ألا يُقْبل مني شيء»[1].

وليس أمر النجاة معلقًا بكثرة الطاعات، فإن أكبر طاعة إذا أصابتها آفة العجب والرياء صارت لا قيمة لها، مصداق ذلك قول النبي ﷺ: «رب قائم حظه من قيامه السهر، ورب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش»[2].

وإن أقل طاعة إذا سلمت من هذه الآفات أعطى الله صاحبها من الأجر والثواب ما لا حد له. سئل النخعي عن عمل كذا وكذا ما ثوابه؟ فقال: «إذا قُبِل لا يحصى ثوابه»[3].



والمتسابق الفذ لا يتعب جسده في غير فائدة، فيغتر بالعدد والكثرة دون أن ينظر إلى اللب والجودة، وشعاره الذي يرفعه: جوهرة واحدة خير من ألف خرزة.

٤ الخوف من الاستدراج:

قال النبي ﷺ: «**إذا رأيت الله تعالى يعطي العبد من الدنيا ما يحب وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك منه استدراج**»[4].

فإذا أنعم الله عليك بنعمة من نعمه كوفرة مال أو كثرة عيال أو ارتفاع مكانة أو عافية بدن، واجتمع مع هذه النعمة ارتكاب كبائر أو

---

(١) حلية الأولياء (٨/ ٧٤، ٧٥).

(٢) رواه الطبراني عن ابن عمر وأحمد والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة كما في (ص ج ص) رقم (٣٤٨٤).

(٣) منهاج العابدين ص (٢٣٦).

(٤) رواه أحمد والطبراني، والبيهقي في الشعب عن عقبة بن عامر كما في (ص ج ص) رقم (٥٦١) والسلسلة الصحيحة رقم (٤١٤).

إصرار على صغائر كنت في عداد المستدرجين بنعم الله عليهم وهم لا يشعرون.

«كل نعمة لا تقرب من الله فهي نقمة، وكل عطية تصرف عنه فهي بلية».

وسنة الاستدراج سنة إلهية حذرنا الله من أن نغفل عنها، فقال عز وجل: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]، وأمثال هؤلاء ظنوا الامتحان نتيجة والبلاء نعمة والإمهال رضا، فعاب الله عليهم في كتابه وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥]، وما درى المسكين أن زواج النعمة من الإصرار على الذنب ينجب جنين الاستدراج الذي يكبر وينمو مورثًا الخزي والبوار والهلاك والخسران، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

أما المؤمنون فقد وجلت قلوبهم لما سمعوا تهديد: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الأعراف: ١٨٢]، وتجافت جنوبهم عن المضاجع لما بلغهم وعيد: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]، وعلموا أن الوصول إلى لآلئ الفردوس محال دون الغوص في بحار الخوف، وأن الطير في الجنة لا يخر بين أيديهم مشويًا دون أن يُصاد بسهم المجاهدة ونبال المكابدة التي يطلقونها في حياتهم قبل السفر، علموا هذا فكان حالهم في الدنيا:

إذا ما الليل أظلم كابدوه فيُسْفِر عنهم وهم ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا وأهل الأمن في الدنيا هجوع
لهم تحت الظلام وهم سجود أنين منه تنفرج الضلوع
وخُرْسٌ في النهار لطول صمت عليهم من سكينتهم خشوع

ومن لم يخف هذا الخوف خيف عليه من نقصان العمل، ورِقَّة الدين، وفساد العقل، يقسم على هذا الحسن البصري فيقول: «والله ما أحد من الناس بسط له في أمر من أمور دنياه، فلم يخف أن يكون ذلك مكرًا به، واستدراجًا له، إلا نقص ذلك من عمله ودينه وعقله»[(١)].

والآن احزم أمتعتك واستعد للإقلاع حتى تهبط في مطار:



(١) الحسن البصري ص ٣٨- ابن الجوزي- ط مكتبة الخانجي.

الواحة الثالثة:

حسرة أهل الجنة

عنوان عجيب، فكيف يتحسر من فاز؟ أليس قد نال مراده، وبلغ ما أمل؟ لكن النبي ﷺ قال: **«ليس يتحسر أهل الجنة على شيء إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله عز وجل فيها»**(١).

عجيب أمركم أهل الجنان: تتحسرون لا لأنكم عصيتم ربكم في الدنيا، بل لأنكم تركتم فيها ساعة فلم تملأ بذكر الله، بينما يبكي غيركم لفوات لذته، ويتحسر لفراق شهواته، فشتان بين الفريقين.

ويجمع **الإمام الأوزاعي** تلاميذه ليشرح لهم حديث رسول الله ﷺ فيقول: «ليس ساعة من ساعات الدنيا إلا وهي معروضة على العبد يوم القيامة يومًا يومًا، وساعة ساعة، ولا تمر به ساعة لم يذكر الله فيها إلا انقطعت نفسه عليها حسرات، فكيف إذا مرت به ساعة مع ساعة، ويوم مع يوم، وليلة مع ليلة ؟!!» (٢).

مرَّ بهذه الواحة عشاق الجنان وخاطبوا الحور وهم كثير، لكننا توفيرًا لوقتك سنقف مع عشاق ثلاثة فحسب.

أيها العاشق مهلاً إننا — مهرنا غالٍ لمن يخطبنا

جسد مضنى وروح في العنا — وجفون لا تذوق الوسنا

وفؤاد ليس فيه غيرنا — فإذا ما شئت أدِّ الثمنا

---

(١) رواه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب عن معاذ كما في (ص ج ص) رقم (٥٣٢٢).

(٢) مع العارفين ص (١٩).

العاشق الأول:

كان عبد الله بن عمر ﷺ يصلي على الجنازة ثم ينصرف، فلما مر بواحتنا أقبل فلما سمع حديث النبي ﷺ: «من تبع جنازة مسلم إيمانًا واحتسابًا، وكان معها حتى يصلي عليها ويفرغ من دفنها، فإنه يرجع من الأجر بقيراطين، كل قيراط مثل أحد، ومن صلى عليها ثم رجع قبل أن تدفن، فإنه يرجع بقيراط من الأجر»[1].

فلما سمعه تعاظمه وأرسل إلى عائشة رسولاً يسألها عن قول أبي هريرة راوي الحديث، ثم يرجع إليه فيخبره ما قالت، وأخذ ابن عمر قبضة من حصى المسجد يقلبها في يده حتى يرجع الرسول إليه، فقال: قالت عائشة: صدق أبو هريرة، فضرب ابن عمر بالحصى الذي كان في يده الأرض وهو يقول: لقد فرطنا في قراريط كثيرة، يتحسَّر على طاعة ضيعها تدنو به من الجنة، وغيره يتحسر على معصية لم ينلها تدنو به من النار!!

العاشق الثاني:

هو أحد الذين قال تعالى عنهم: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

هذا والله بكاء الرجال؛ بكوا على فقد رواحل يحملون عليها إلى الموت، في مواطن تراق فيها الدماء وتتطاير فيها الأشلاء، وتقطف فيها رؤوس الرجال، أما من يبكي فوات حظه من الدنيا، وكانت

(١) رواه البخاري والنسائي عن أبي هريرة كما في (ص ج ص) رقم (٦٠١٤).

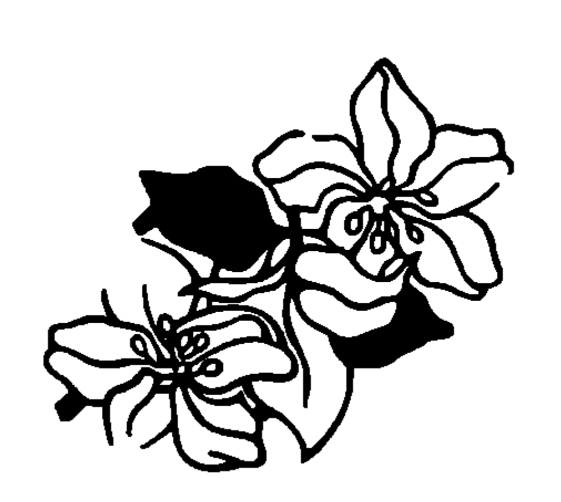
حسرته على فقد شهواته، فذلك بكاء الأطفال.

سهر العيون لغير وجهك باطل وبكاؤهن لغير فقدك ضائع

العاشق الثالث:

يرى عمله يقصر به عن الجنة ما لم يُطَعَّم بظمأ الهواجر، وقيام ليالي الشتاء فلما حضرته المنية بكى حسرة إذ حيل بينه وبين راحته، وراحته في الظمأ والقيام!!

ذلك هو عامر بن عبد قيس لما سئل عند احتضاره: ما يبكيك؟ قال: «ما أبكي جزعًا من الموت، ولا حرصًا على الدنيا، ولكن أبكي على ظمأ الهواجر، وعلى قيام ليالي الشتاء»[1].



(١) الزهد لابن المبارك ص (٦٠).

الواحة الرابعة:

خمسية الصحابة

هذه واحة مباركة تنبت خمسة أنواع من الزاد لا نوعًا واحدًا، وكفى بها أنها الواحة التي أوى إليها صحابة رسول الله ﷺ خير قرون هذه الأمة، فلنشرب من نفس المعين، ولننهل من نفس ما نهلوا منه.

هذه الأنواع الخمسة نقلها لنا **الإمام الأوزاعي** وهي: «لزوم الجماعة، واتباع السنة، وعمارة المسجد، وتلاوة القرآن، والجهاد في سبيل الله»[١].

١- لزوم الجماعة:

هذا هو زادهم الأول، واقرأ معنا هذا الحديث العجيب المعجز:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «صلى رسول الله ﷺ الصبح ثم أقبل على الناس فقال: «....، **وبينما رجل في غنمه إذ عدا الذئب فذهب منها بشاة فطلب حتى كأنه استنقذها منه فقال له الذئب هذا: استنقذتها مني فمن لها يوم السَّبُع، يوم ليس لها غيري؟**» فقال الناس: سبحان الله ذئب يتكلم؟ قال: «**فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثم**»[٢] (أي: لم يكونا حاضرين ومع هذا صدَّقا وهذا دلالة على قوة الإيمان).

أيها المتسابقون: ليست هذه الواقعة التي ذكرها الحديث على سبيل الرمز، كلا إنما هي (واقع يتكلم) نقله لنا (وحي) على لسان

(١) بهجة المجالس (٣/ ١٤٠)- القرطبي.

(٢) رواه الشيخان والنسائي عن أبي هريرة كما في (ص ج ص) رقم (٢٨٦٨) والإرواء رقم (٢٤٧).

رسول الله ﷺ، ذئب يتكلم بقدر الله مع الإنسان وبلغته ليتعلم الإنسان حقيقة قيمة يريده الله أن يعلمها، هذه الحقيقة هي: **«إنما يأخذ الذئب من الغنم الشاة القاصية»**[(١)].

الذئب هو الشيطان، والغنم هم البشر، فاقرأ بقلبك لا بعينك ما وراء الأحرف والكلمات ثم امض وسابق، وكن في المقدمة لا في الساقة.

لكن ملازمة الصالحين يتجاوز أمر النجاة إلى أمر التربع وسط الجنة فيخبرنا النبي ﷺ: **«من أراد بحبوحة الجنة (أوسطها) فليلزم الجماعة»**، ويؤكد لنا فيقول: **«عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد»** فإن استطاع الشيطان أن يغوي الواحد فهو من الاثنين أبعد وأعجز، فكيف ومتسابقنا ضمن رفقة صالحة تذكره إذا نسي، وتعينه إذا ذكر، ولهذا كان **(الواحد شيطان، والاثنان شيطانان، والثلاثة ركب)**[(٢)]، ولهذا قيل: كدر الجماعة خير من صفو الفرد.

الرفيق قبل الطريق

ولأن التجريب قبل التدقيق كان **أحمد** بن حنبل يدقق في اختيار من يدنيه، وعرف عنه ذلك حتى قال عنه الشاعر:

ويحسن في ذات الإله إذا رأى	**مضيمًا لأهل الحق لا يسلم البلا**
وإخوانه الأدنون كل مُوَفَّق	**بصير بأمر الله يسمو إلى العلا**

---

(١) رواه أحمد في المسند بتحقيق أحمد محمد شاكر (١/ ٢٣٠، ٢٣١)، وقال: إسناده صحيح.

(٢) رواه الحاكم عن أبي هريرة كما في السلسلة الصحيحة رقم (٦٢).

تأمل قوله:

(١) **بصير بأمر الله:** يجده الله حيث أمره، ويفتقده حيث نهاه، إن تكلم فبالله، وإن سكت فبالله، وإن تحرك فبالله، وإن أحب فبالله، وإن عادى فبالله، وإن قدَّم خطوة، أو أخَّرها فبالله.

(٢) **يسمو إلى العلا:** فيذكِّرك بالله إن نسيت، وبالموت إن غفلت عنه، وبحقيقة الدنيا إن انشغلت بها، وبالصف الأول إن افتقدك فيه، وبسنة النبي ﷺ إن بعدت عنها، وبِوِرد القرآن إن هجرته، وباستغفار الأسحار إن نمت عنه، وبظمأ الهواجر إن تركته.

فليكن إخوانك من نفس النوع إخوان خير، ولا تخدعن فيهم فلا يكونون سوى أصحاب دنيا كما خُدِع فيهم أبو مسلم الخولاني !!

دخل أبو مسلم الخولاني- رحمه الله- مسجدًا فرأى فيه حلقة ظنهم في ذكر، فجلس إليهم فإذا هم يتحدثون في الدنيا فقال:

«سبحان الله! هل تدرون يا هؤلاء ما مثلي ومثلكم؟.... كمثل رجل أصابه مطر غزير وابل فالتفت فإذا هو بمصراعين عظيمين فقال: لو دخلت هذا البيت حتى يذهب عني أذى هذا المطر، فدخل فإذا بيت لا سقف له، جلست إليكم وأنا أرجو أن تكونوا على خير: على ذكر، فإذا أنتم أصحاب دنيا»[١].

والجماعة التي نعنيها جماعة «اجلس بنا نؤمن ساعة» ورفقة «ألن قلبي بذكر الله»، فإن لم تزل قسوة قلبك بصحبتهم قلنا لك:

«لا تضجر، فللدوام أثر، جالس الباكين يتعدَّ إليك حزنهم،

---

(١) صفة الصفوة ٤/ ٢٠٩- ابن الجوزي- ط دار المعرفة.

فتأثير الصحبة لا يخفى، أما ترى دود البقل أخضر؟!»[١].

فعليك بحبهم والتودد إليهم تحشر معهم، وإلا فالتهديد حاضر يرسله لك عبد الله بن مسعود: «لو أن رجلاً قام بين الركن والمقام يعبد الله سبعين عامًا لبعثه الله مع من يحب»[٢]، يقطع الطريق بذلك على من يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ويؤثر حب الفجار على حب الأبرار.



ويكمل الحسن تهديد ابن مسعود فيقول: «لا يغرَّنك قول: يحشر المرء مع من أحب، فإن اليهود والنصارى يحبون أنبياءهم وليسوا معهم»[٣].

المنقذون !!

وانظر كيف ينقذ الأخ الصالح أخاه حين يزيل عن بصره الغشاوة ويرفع عنه غطاء الغفلة:

حبس عمر بن عبد العزيز رجلاً بالمدينة، وجاوز عمر في حبسه القدْرَ الذي يستحقه، فكلَّمه غلامه مزاحم في إطلاقه، فقال له عمر: ما أنا بمُخرِجه حتى أبلغ في الحيطة عليه بما هو أكثر مما مرَّ به، فقال مزاحم مغضبًا:

يا عمر بن عبد العزيز!! إني أحذِّرك ليلة تمخَّض بالقيامة، وفي

(١) المدهش ص (١٩٦).
(٢) الإحياء (٢/ ١٧٥).
(٣) السابق (٢/ ١٧٥).

صبيحتها تقوم الساعة .. يا عمر، ولقد كدت أنسى اسمك مما أسمع: قال الأمير .. قال الأمير .. قال الأمير.

قال عمر: إن أول من أيقظني لهذا الشأن مزاحم، فوالله ما هو إلا أن قال ذلك، فكأنما كُشِف عن وجهي غطاء [١].

ولعلَّ حسنات عمر وزهد عمر وعدل عمر وخشية عمر وكل روائع عمر يجعل الله مثلها في ميزان عبد مغمور السيرة غير ذائع الصيت اسمه: مزاحم!! وذلك ببركة هذا الموقف.

هذا الكلب.. فماذا عنك؟!

وقد نقل القرطبي- رحمه الله- كلامًا لأحد وعاظ مصر واسمه أبو الفضل الجوهري قاله على منبر وعظ عام ٤٦٩ هـ حيث نوَّه كيف نال كلب أصحاب الكهف شرف ذكره في القرآن فقال: «إن من أحب أهل الخير نال من بركتهم، كلب أحب أهل الفضل وصحبهم فذكره الله في محكم تنزيله، ثم قال: إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة بصحبة ومخالطة الصالحين والأولياء، حتى أخبر الله تعالى بذلك في كتابه جل وعلا، فما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين المحبين للأولياء والصالحين» [٢].

فإذا صحبتهم حسبت منهم، وفزت بسبب مرافقتهم لأن مما جاء في وصفهم: «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم» [٣]، ولأن في

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٤٠.
(٢) تفسير القرطبي ص (٣٩٨٨)- ط دار الشعب.
(٣) رواه الشيخان عن أبي هريرة كما في اللؤلؤ والمرجان رقم (١٧٢٢).

صحبتهم رؤية النفس على حقيقتها بلا تزيين أو خداع، فالمؤمن مرآة أخيه، وفي ذلك إدراك علل النفس وآفاتها، ومن ثم استكمال نقائصها وتهذيبها وتقويمها وتسديدها، قال مطرِّف بن الشِّخِّير: «لأنا أحوج إلى الجماعة من الأرملة، إني إذا كنت في الجماعة عرفت ذنبي»(١).

رأيتُ الطين في الحمام يومًا ... بكفِّ الحب أثَّر ثم نسَّم

فقلت له: أمسك أم عبير؟ ... لقد صيَّرتني بالحب مغرم

أجاب الطين: إني كنت تُربًا ... صحِبْتُ الورد صيَّرني مُكرَّم

ألفت أكابرًا وازددت علمًا ... كذا من عاشر العلماء يكرَّم

سِرُّ مع القافلة

وكن معهم حيث كانوا، ولا يفارقن خيالهم خيالك، فهم خير لك من الدنيا وما فيها، والسر في هذا يخبرنا به بلال بن سعد فيقول: «أخ لك كلما لقيك ذكرك بنصيبك من الله، وأخبرك بعيب فيك أحب إليك وخير لك من أخ كلما لقيك وضع في كفك دينارًا»(٢).

ولهذه الخيرية سبب ثانٍ يبوح لنا به الحسن البصري حيث يقول: «إخواننا أحب إلينا من أهلينا لأن إخواننا يذكروننا بالآخرة، وأهلونا يذكروننا بالدنيا»(٣).

وسبب ثالث نطق به محمد بن يوسف فقال:

«وأين مثل الأخ الصالح؟ أهلك يقتسمون ميراثك ويتنعمون

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل ص (٣٠٠)- ط دار الريان.

(٢) حلية الأولياء (٥/ ٢٢٥).

(٣) الزهد لابن المبارك ص (١٠٦).

بما خلَّفت، وهو منفرد بجدثك (قبرك)، مهتم مما قدَّمت وما صرتَ إليه، يدعو لك في ظلمة الليل وأنت تحت أطباق الثرى»[١].

وبين إخوان الآخرة يكون التنافس ويحتدم السباق، أما إخوان الدنيا فيقول عنهم الحسن: «من نافسك في دينك فنافِسْه، ومن نافسك في دنياه فألقها في نحره»[٢].

ولأن قافلة عكاشة محدودة العدد، فتأتي الأخبار عن أفذاذ كلهم يريدون أن يحجزوا أماكنهم في القافلة السائرة، يقول **الشيخ شمس الدين محمد بن عثمان التركستاني**: «ما بلغني عن أحد من الناس أنه تعبَّد عبادة إلا تعبَّدتُ نظيرها، وزدت عليه».

فحذار أن تستبدل الطالحين بالصالحين، والبطالين بالقوامين وتذكر: **«يد الله مع الجماعة، ومن شذَّ شذَّ إلى النار»**.

شذَّ: أي فارق الصالحين، وتفرد حينا فاحتوشته شياطين الإنس والجن فأغروه وزيَّنوا له الهوى، معصية تلو معصية، وظلمة فوق ظلمة إذا أخرج يده لم يكد يراها حتى يسقط في جنهم، هكذا في متوالية تراكمية تؤكد صحتها الحوادث والأيام، وتشهد بسلامتها مشاهدة من استزلهم الشيطان، وباض في قلوبهم وفرَّخ.

والآن افتح قلبك لتملأه من الزاد الثاني في هذه الواحة وهو:

ب- اتباع السنة:

السنة كما قال **الإمام مالك** -رحمه الله-: مثل سفينة نوح من

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ١٨٦).
(٢) مكاشفة القلوب ص (١٢٦)- أبو حامد الغزالي- ط مكتبة التوفيقية.

ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق، والتخلف عنها: أي عدم العمل بها واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، فإنه يكون فريسة سهلة تسقط في شراك الشيطان، ولهذا قال أبو بكر الصديق ﷺ: «ولست تاركًا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به، وإني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ»(١).

قال الحسن البصري: «السنة- والله الذي لا إله إلا هو- بين الغالي والجافي، فاصبروا عليها- رحمكم الله- فإن أهل السنة كانوا أقلَّ الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بقي، الذين لم يذهبوا مع أهل الأطراف في أطرافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم فكذلك إن شاء الله تكونون»(٢).

والرسول ﷺ يرغِّبنا في اتباع السنة ويُحذِّرنا من الأهواء والزيغ في حديث رائع التصوير: عن معاوية ﷺ قال: قام فينا رسول الله ﷺ فقال: **«ألا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين: ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة، وإنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه، لا يبقى منه عروق ولا مفصل إلا دخله»**(٣).

والكَلَب داء يصيب الإنسان إذا عضه كلب مصاب بهذا الداء، فلا يبقى في الجسم جزء ولا مفصل ولا غيرهما إلا دخله ذلك الداء،

---

(١) رواه الشيخان عن أبي بكر الصديق كما في اللؤلؤة والمرجان رقم (١١٥٠).
(٢) إغاثة اللهفان لابن القيم (١/ ٧٠).
(٣) رواه أحمد وأبو داود كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم (٤٩).

وهو جريان لا يقبل العلاج، ولا ينفع فيه الدواء، وكذلك صاحب الأهواء إذا دخلت قلبه وأُشرِب حبها لا تعمل فيه موعظة ولا تؤثر فيه نصيحة.

وفي زماننا هذا غابت السنة وغلب الهوى، والنتيجة أن تبدلت المفاهيم والقيم:

صار المعروف منكرًا والمنكر معروفًا.. انقلب العدو صديقًا وعاد الصديق عدوًا.. أُمِر بالرذيلة وحوربت الفضيلة.. طُمِست نجوم الهدى وبرز عشاق الهوى... حلَّ التخشع محل الخشوع، والخيانة محل الأمانة، والمراقص محل المساجد، والخليلات محل الزوجات، والهدم محل البناء، وبدلاً من الزحف لتحرير المقدسات كان الزحف لإحراز الميداليات، وبدلاً من حشد الأمة لمواجهة الأعداء كان حشدها لشهود حفلات الرقص والغناء، وأصبح حالنا كما وصفنا أبو الدرداء ﷺ: «لو خرج رسول الله عليكم ما عرف شيئًا مما كان عليه هو وأصحابه إلا الصلاة، قال الأوزاعي: فكيف لو كان اليوم؟ قال عيسى بن يونس: فكيف لو أدرك الأوزاعي هذا الزمان؟»[1].

ونحن بدورنا نقول: فكيف لو أدرك عيسى بن يونس هذا الزمان؟

فالتزم سنة نبيك وإلا لست منه وليس منك، أليس القائل: «فمن رغب عن سنتي فليس مني»[2]، لست منه في الدنيا ولا في الآخرة فتطرد عن حوضه، ومتبعو سنته ينهلون من بين يديه شربة

---

(١) الاعتصام ص (٢٠)- أبو إسحاق الشاطبي- ط دار التحرير للطبع والنشر.
(٢) رواه الشيخان والنسائي وابن ماجة عن أنس كما في (ص ج ص) رقم (٥٥٧٢).

هنيئة مريئة لا يظمئون بعدها أبدًا.

هذا ما قاله النبي ﷺ لأنس بن مالك: «ليردن عليَّ ناسٌ من أصحابي الحوض، حتى إذا رأيتهم عرفتهم اختلجوا دوني، فأقول: يا رب أصحابي أصحابي، فقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»(١).

واحذر أن تحقق وأنت لا تشعر قولة الأوزاعي: «يأتي على الناس زمان أقل شيء في ذلك الزمان أخ مؤنس، أو درهم من حلال، أو عمل في سنة»(٢).

جـ- عمارة المسجد:

إنما جماع الخير في ارتياد المسجد ولقد أحصاها الحسن بن علي فقال:

«من أدام الاختلاف إلى المسجد أصاب ثماني خصال: آية محكمة، وأخًا مستفادًا، وعلمًا مستطرفًا، ورحمة منتظرة، وكلمة تدله على هدى، أو تردعه عن ردى، وترك الذنوب خشية أو حياء».

هذه هي الآثار التي لا يعادلها ثمن، ولا يقدرها مال، من أجلها قال الشيخ الزاهد عبد الباقي بن يوسف: «قعودي في هذا المسجد ساعة أحبُّ إليَّ من ملك العراقين»(٣)، وإنما قال ذلك لأنه حققها في نفسه، أما غيره ممن ضيع هذه الآثار فقعوده في المسجد لا يساوي في نظره فلسًا أو فلسين.

فالمتسابق الذي يريد أن يتزود من هذا المعين يخلع الدنيا عن

---

(١) رواه الشيخان عن حذيفة وأحمد عن أنس كما في (ص ج ص) رقم (٥٢٤٤).

(٢) حلية الأولياء (٨/ ٣٥٥).

(٣) العراقان هما البصرة والكوفة.

نفسه، يخلعها مع حذائه على باب المسجد، و(كما يُشَقُّ النهر فتقف الأرض عند شاطئيه لا تتقدم، يُقام المسجد فتقف الأرض بمعانيها الترابية خلف جدرانه لا تدخله)[١].

وصاحبنا الذي ينوي أن يكون في السبعين ألفًا شعاره الطهر الذي يسمى (الوضوء)، فكأنما يغسل بوضوئه آثار الدنيا عن أعضائه قبل دخول المسجد.

بين الفارة والجمل

قال أبو الفرج ابن الجوزي:

«رأت فأرة جملاً فأعجبها، فجرَّت خطامه فتبعها، فلما وصلت إلى باب بيتها وقف ونادى بلسان الحال: إما أن تتخذي دارًا يليق بمحبوبك، أو تتخذي محبوبًا يليق بدارك. خذ من هذا إشارة... إما أن تصلي صلاة تليق بمعبودك، أو تتخذ معبودًا يليق بصلاتك»[٢].

فهم الأعمش ما دار بين الفأرة والجمل فكان قريبًا من سبعين عامًا لم تفته التكبيرة الأولى، واختلف إليه صاحبه وكيع أكثر من ستين عامًا فما رآه يقضي ركعة، وعن أبي حيان عن أبيه قال: كان الربيع بن خثيم يُقاد إلى الصلاة وبه الفالج (الشلل) فقيل له: قد رُخِّص لك، قال: إني أسمع «حي على الصلاة» فإن استطعتم أن تأتوها ولو حبوًا، وقيل لكثير بن عبيد الحمصي عن سبب عدم سهوه في الصلاة قط، وقد أم أهل حمص ستين عامًا فقال: ما دخلت من باب المسجد قط

---

(١) وحي القلم للرافعي (١/ ٣١٨).

(٢) المدهش ص (٤٧٢، ٤٧٣).

وفي نفسي غير الله.

وكان المحدِّث الثقة بشر بن الحسن يقال له (الصَّفِّي) لأنه لزم الصف الأول في مسجد البصرة خمسين سنة، ومثله إبراهيم بن ميمون المروزي كانت مهنته الصياغة وطرق الذهب والفضة، قال ابن معين: كان إذا رفع المطرقة فسمع النداء لم يردها.

قال قاضي قضاة الشام سليمان بن حمزة المقدسي: لم أُصلِّ الفريضة قط منفردًا إلا مرتين وكأني لم أصلهما قط، مع أنه قارب التسعين، هكذا كانوا فوصلوا، وهكذا كُنْ وإلا فلن تدرك الجياد السابقة كما لم يدركها عبيد الله بن عمر القواريري شيخ البخاري ومسلم حيث قال:

«لم تكن تفوتني صلاة العشاء في الجماعة قط، فنزل لي ليلة ضيف فشغلت بسببه، وفاتتني صلاة العشاء في الجماعة فخرجت أطلب الصلاة في مساجد البصرة، فوجدت الناس كلهم قد صلوا وغلقت المساجد فرجعت إلى بيتي، وقلت: قد ورد في الحديث أن صلاة الجماعة تزيد على صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة، فصليت العشاء سبعًا وعشرين مرة، ثم نمت، فرأيت في المنام كأني مع قوم على خيل، وأنا على فرس ونحن نستبق، وأنا أركض فرسي فلا ألحقهم، فالتفت إليَّ أحدهم قائلاً: لا تتعب فرسك فلست تلحقنا. قلت: ولم؟ قال: لأنا صلينا العشاء في جماعة وأنت صليت وحدك، فانتبهت وأنا مغموم حزين لذلك»[1].

والآن احزم حقائبك وجهز حقيبة جديدة لتملأها من زاد:

---

(١) إتحاف الأكابر بتهذيب كتاب الكبائر ص (٦٢، ٦٣)- تهذيب د. أسامة عبد العظيم- ط دار الفتح.

د- تلاوة القرآن:

قال خباب بن الأرت ﷺ: « تقرَّب إلى الله بما استطعت، فلن يُتقرَّب إلى الله بشيء أحب إليه مما خرج منه »[1]، وصدق فإن خير الشواغل التشاغل بالقرآن سواء في تلاوته وحفظه، أو فهمه وتفسيره وتدبره.

لكنها ليست أي تلاوة، وإنما تلاوة متدبرة تتجاوز الألسنة إلى الأفئدة، فإن العبد يتكلم بالقرآن فيلعن نفسه، وهو لا يعلم يقول: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، وهو ظالم لنفسه ويقرأ: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١] وهو منهم، أدرك ذلك أنس بن مالك ﷺ فأطلق جرس التحذير معلنًا:

«ربَّ تَالٍ للقرآن والقرآن يلعنه»[2].

وتلاوة المتسابقين تلاوة متفردة حيث يشعر كل منهم أنه المخاطب بكل آية، فإذا سمع أمرًا، أو نهيًا قدر أنه المأمور والمنهي، فليست قصص السابقين للترويح والتسلية تمصمص لها الشفاه وتفغر لها الأفواه، وإنما ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ [يوسف: ١١١]، قال علي بن أبي طالب ﷺ: لا خير في عبادة لا فقه فيها، ولا خير في قراءة لا تدبر فيها.

لكن كيف يتدبر القرآن رجل حديدة قلبه باردة، وتجارة آخرته كاسدة؟ آهات وآهات يطلقها ابن الجوزي من فرط أساه فيقول:

---

(١) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ص (٢٤١)- تحقيق محمد حامد الفقي- ط دار الكاتب العربي.

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٢٧٤).

«آه للسان نطق بالإثم كيف غفل عن قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [يس: ٦٥]، آه ليد امتدت للحرام كيف نسيت ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾ [يس: ٦٥]، .... آه لقدم سعت في الآثام كيف لم تتدبر ﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ [يس: ٦٥]، ....آه لجسد ربا على الرِّبا، أما سمع منادي التحذير على رُبا ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٩]، .... آه لفم فغر فاه لتفريغ كأس الخمر أما بلغه زجر ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾[1] [المائدة: ٩٠].



وإذا كان الله قد قصد بالخطاب جمع الناس فقد قصد الآحاد، قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، فمن بلغه القرآن فكأنما كلمه الله، فليعلم كل من اشترك معنا أن هذا القرآن رسائل جاءتنا من ربنا نتدبرها في الصلوات، ونقف عليها في الخلوات، وننفذها في الطاعات.

الإيمان قبل القرآن

نتدبر بالقلب، ونقف بالعقل، وننفذ بالجوارح، هكذا كان سلوك أصحاب محمد ﷺ مع القرآن، كما رآهم عبد الله بن عمر ، لكنه رأى بعدهم من خالفوا النهج فلم يجاوز القرآن حناجرهم، فقال بقلب محترق مكلوم: «لقد عشنا برهة من دهرنا وأحدنا يأتي الإيمان قبل القرآن، فتنزل السورة على محمد ﷺ فنتعلم حلالها وحرامها، وأمرها وزجرها، وما ينبغي أن يقف عليه منها، ثم رأيت رجالاً يؤتي أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدري ما أمره، ولا زجره، ولا ما

(١) التبصرة (١/ ١٨٩، ١٩٠).

ينبغي أن يقف عنده منه، فينثره نثر الدقل»[1].

فيقرأه قراءة الجرائد، ويتصفحه تصفح المجلات، وتمله القلوب فلا تجد لقراءته لذة، ويهجر كتاب الله حتى يشكو تراكم التراب عليه، تمامًا كما تنبأ معاذ بن جبل ﷺ: «سيبلى هذا القرآن في صدور أقوام كما يبلى الثوب، فيتهافت يقرؤونه لا يجدون له شهوة ولا لذة، يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب، أعمالهم طمع لا يخالطه خوف، إن قصَّروا قالوا: سنبلغ، وإن أساءوا قالوا: سيُغْفر لنا، إنا لا نشرك بالله شيئًا»[2].

لذة تقهر الألم

أما من اقتفى الأثر ولزم الطريق واستظل بالراية، فالقرآن لذته، والقيام مهجته، والترنم بالاستغفار في الأسحار عنده أشهى من الماء البارد على الظمأ.

رُوي أن محمد بن إسماعيل البخاري دُعِي إلى بستان بعض أصحابه، فلما حضرت صلاة الظهر صلى بالقوم، ثم قام للتطوع فأطال القيام، فلما فرغ من صلاته رفع ذيل قميصه، فإذا زنبور قد أبَّره في (١٦) موضعًا، وقد تورم من ذلك جسده، وكانت آثار الزنبور في جسده ظاهرة، فقال له بعضهم: وكيف لم تخرج من الصلاة في أول ما أبَّرك؟! فقال: «كنت في سورة فأحببت أن أتمها»[3].

والآن انظر إلى مؤشر الزاد لتقيس ما معك في ضوء هذه الحقيقة: لم يجالس أحد القرآن إلا قام بزيادة أو نقصان، قال تعالى: ﴿هُوَ شِفَآءٌ

---

(١) قوت القلوب ص (١٢٢)، والدقل: أردأ أنواع التمر.

(٢) سنن الدارمي رقم (٣٢١٢).

(٣) تاريخ بغداد (٢/ ١٢).

وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].



فاذكر الله بلسان حسن صنعه يفتح اقفال قلبك ويجلُ صدأ فكرك ويمنحك جائزة ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[البقرة: ١٥٢].

ونزِّه سمعك خلال رحلتك عن اللغو بالباطل، وانشغل بما ينفعك، واعلم أن:

حب الكتاب وحب ألحان الغناء	في قلب عبد ليس يجتمعان
ثقُل الكتاب عليهم لما رأوا	تقييده بشرائع الإيمان
واللهو خفَّ عليهم لما رأوا	ما فيه من طرب ومن ألحان

هذا عن اللهو الحرام والغناء الفاحش، بل ذهب ابن تيمية إلى أكثر من ذلك، وهو أن الإكثار من سماع قصائد الوعظ الإيمانية وأناشيد الزهد قد يضُرُّ كذلك، وذلك إذا زاد حتى طغى على القرآن، فقال رحمه الله:

«من أكثر من سماع القصائد لطلب صلاح قلبه تنقص رغبته في سماع القرآن حتى ربما يكرهه!!»[١].

صغار المتسابقين

ويدهش المرء حين يجد في الحلبة متسابقين لو خاضوا سباقًا غير (سباق نحو الجنان) ما أجيزوا لصغر سنهم، لكن سباقنا هذا يستوي فيه الصغير والكبير، بل قد ينتصب الصغار أعلامًا ترفرف لتكون

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢١٧).

علامات ترشد الحيارى والتائهين، نزل في واحتنا هذه برعم لم يتم سنواته الست، نقرأ خبره ونحن نغض الطرف حياء أن يسبقنا مثله:

قال الشيخ ابن ظفر المكي: «بلغني أن أبا يزيد طيفور بن عيسى البسطامي لما تحفظ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١، ٢]، قال لأبيه: يا أبت من الذي يقول الله له هذا؟ قال: يا بني .. ذلك النبي ﷺ، قال: يا أبت ما لك لا تصنع كما صنع النبي محمد ﷺ؟ قال: يا بني .. إن قيام الليل خُصِّص به ﷺ، وبافتراضه عليه دون أمته.

فسكت عنه فلما تحفظ قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ [المزمل: ٢٠]، قال: يا أبت .. إني أسمع أن طائفة كانوا يقومون الليل فمن هذه الطائفة؟ قال: يا بني .. هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. قلت: يا أبت فأي خير في ترك ما عمله الرسول ﷺ وأصحابه؟ قال: صدقت يا بني، فكان أبوه بعد ذلك يقوم من الليل ويتوضأ ويصلي، فاستيقظ أبو يزيد ليلة فإذا أبوه يصلي فقال: يا أبت .. علِّمني كيف أتطهر وأصلي معك، فقال أبوه: يا بني ارقد فإنك صغير. قال: يا أبت إذا كان يوم يصدر الناس أشتاتًا ليروا أعمالهم أقول لربي: إني قلت لأبي: كيف أتطهر لأصلي معك فأبى وقال لي: ارقد فإنك صغير بعد.. أتحب هذا؟ فقال أبوه: لا والله يا بني .. ما أحب هذا، وعلَّمه فكان يصلي معه»(١).

(١) منهج التربية النبوية للطفل ص (١٣٠)- محمد نور عبد الحفيظ سويد- ط مؤسسة الكلمة.

وبعد أن سمعت كلام الصغار، فاسمع كلام الكبار، وعِ بسمعك وبصرك كلمات مكحول الدمشقي:

« اقرأ القرآن ما نهاك، فإذا لم ينهك فلست تقرأه »[(١)].

والآن ونحن على وشك أن نودع واحة خمسية الصحابة.. بقي لنا أن نتزود بالزاد الخامس والأخير وهو:

هـ- الجهاد في سبيل الله:

إن واقعنا اليوم لم يفتح فيه باب الجهاد في سبيل الله في القتال... ولكن أبواب الجهاد الأخرى مفتوحة على مصراعيها.. ولله الحمد (والهدف من الدعوة والقتال واحد!! وهو إيصال الخير إلى الناس والفارق بينهما أن الدعوة تكون مع احتمال الأذى، والقتال يكون دعوة مع إزالة الأذى) [(٢)].

وإذا كان باب الجهاد مغلقًا الآن فلتربط نفسك وقلبك بالطيور الخضر التي تسرح في الجنة تأكل من ثمارها وترد أنهارها تنتظر قدومك إليها، فلتكن الشهادة أملك ودعاءك في سجودك، كما كانت أمل عمرو بن عتبة التابعي الجليل حيث طلع على بعض رفقته وعلى رأسه جبة جديدة، فهل تدري ما كانت تحدثه نفسه وهو يتزين بهذه الجبة؟ لقد ودَّ لو تزين بوسام يمحو كل وسام إلا وسام النبوة، لقد قال لأصحابه، وهو يشير بإصبعه لمواضع في الجبة: «ما أحب إلا أن ينحدر دمي على هذه الجبة ويجري عليها هنا وهاهنا».

وفي يوم خرج مع صحابته بجُبته، فاستقبلهم مرج ضاحك مبتهج، فما إن مشى فيه حتى أثارت نسماته مشاعر الشوق إلى لقاء

---

(١) حلية الأولياء (٥/ ١٧٧).

(٢) قواعد الدعوة إلى الله ص (١٢٧)- د. همام سعيد- ط دار الوفاء.

زوجة من الحور العين لا تشبه نساء الدنيا لأن «ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء»[١].

وكيف تشبه نساء الدنيا من خُلِقت من النور، ونشأت في ظلال القصور، مع الولدان والحور، في دار النعيم والسرور، والتي لو برز ظفرها لطمس بدر التمام، ولو ظهر سوارها ليلاً لانمحى عن الكون الظلام، ولو بدا معصمها لأسر كل الأنام، ولو تفلت في ماء البحر لقلبته عذبًا، ولو اطلعت بين السماء والأرض لملأت ما بينهما نورًا وعطرًا، فبالله كيف يتأخر العاقل عن وصال مثل هذه؟! وفي الجنة أمثال أمثالها بل أمثال أمثال أمثالها، أيقن عمرو بذلك- وقليل من أيقن- فابتعثت من أعماقه صادقة: «ما أحسن هذا المرج، ما أحسن هذا المرج، ما أحسن الآن لو أن مناديًا نادى: يا خيل الله اركبي»[٢].

وكأن الرجل يقسم على الله، فما أسرع ما أبر الله قسمه، فإذا بمنادٍ ينادي: يا خيل الله اركبي، فركب عمرو، وعلم أبوه بركوبه، فقال: عليَّ عمرًا.. عليَّ عمرًا، فأرسل في طلبه، فما أدركه حتى أصيب.

يا لقدر الله!! أصيب بحجر إصابة ليس لمثلها أن تكون قاتلة! أصابه جرح صغير فجعل يخاطبه، وهو يرى الدم يجري منه على المكان الذي أشار إليه بإصبعه في جبته ويقول: والله إنك لصغير، وإن يشأ الله يبارك في الصغير.

فلما حلَّ المساء، بارك الله في الجرح الصغير فصار كبيرًا، وكانت الشهادة!!

---

(١) رواه الضياء عن ابن عباس وهو حديث موقوف كما في السلسلة الصحيحة رقم (٢١٨٨).

(٢) حلية الأولياء (٤/ ١٥٦).

ثانيًا: أن تعرف عقبات الطريق

لكن الشيطان يغيظه ويحنقه أن يقترب المتسابقون من خط النهاية، ويبقى في النار وحيدًا فينصب الكمائن، ويضع العقبات، يبغي بذلك عرقلة متسابق فذ، أو حر تسبقه خطواته إلى الجنان، فيجتمع من هذا وذاك جمهوره الذي يخطب فيه يوم القيامة خطبته الجهنمية التي جاء فيها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وصدق وهو كذوب، فما له شغل في الدنيا غير وضع العقبات ونصب الكمائن، لكن الله حذَّرنا منه، وقد أعذر من أنذر: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]، فحذار أن تنسى أن الشيطان فارغ وأنت مشغول، لا ينام وتنام، لا تراه ويراك، لا ينساك وتنساه، ومن نفسك للشيطان عليك عون، إن فتر في الظاهر أبطن لك مكيدة في الباطن، وإن مهَّد لك طريقًا في العلن نصب لك كمينًا في السر، ولأن النبي ﷺ علمنا أن الدين النصيحة وجب علينا أن نقول لكم: ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء: ٧١].

ثم لم نكتفِ بالتحذير بل كنا كرماء حين أتبعناه بدعاء رائع من قلب خاشع، وهل أخشع من الخليفة الراشد والسلطان الزاهد عمر ابن عبد العزيز الذي كثيرًا ما دعا ربَّه:

«يا رب .. سلّطتَ عليّ عدوا فأسكنتَه صدري، وأسكنتَه مجرى دمي، إن أُهِمُّ بفاحشة شجّعني، وإن أهِمُّ بطاعة ثبّطني، لا يغفل إن غفلتُ، ولا ينسى إن نسيتُ، ينصب لي الشهوات، ويتعرّض لي في الشبهات، وإلا تصرف عني كيده يستزلني. اللهم فاقهر سلطانه عليّ بسلطانك عليه حتى تُخسئه بكثرة ذكري لك فأفوز مع المعصومين»[(١)].

والآن.. تنبيه إلى جموع المتسابقين: استعدوا لتفادي هذه العقبة وهي:

العقبة الأولى:

طول الأمل

عقبة كؤود يسقط على إثرها الكثيرون، من أجل ذلك فحبنا في الله يدفعنا دفعًا إلى أن يهز أحدنا أخاه إذا أحس منه غفلة، أو لمس منه أملاً بعيدًا يصرفه عن الطاعات ويصيح فيه:

أفِق من سباتك قبل أن يُنادى فيك بالرحيل.

وكما يسأل أهل الدنيا إخوانهم عن الصحة والعيال فإن أهل الآخرة بعد السؤال عما سأل عنه إخوان الدنيا يسألون عن الآخرة والمآل، كما كتب هذا المتسابقُ إلى أخيه في رسالة جاء فيها:

أخي الحبيب .. فإن الدنيا حلم، والآخرة يقظة،
والمتوسط بينهما الموت ونحن في أضغاث أحلام

والسلام ...

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص (١١٥) بتصرف يسير- ط دار الفضيلة.

هكذا في إيجاز دون مقدمات أو مجاملات: أوجز فأنجز، فيا أيها المغرور بطول صحته: أما رأيت ميتًا من غير مرض؟! ويا أيها المغرور بطول المهلة: أما رأيت مأخوذًا قط من غير عدة؟! أبالصحة تغتر؟! أم بسوء العاقبة تستخف؟! أم الموت تأمن؟! أم على ملك الموت تجترئ؟! إن ملك الموت إذا جاء لا يمنعه منك كثرة مالك، ولا احتشاد أتباعك، ولا يطرق ليستأذنك يقبض روحك أم لا!!

لا تأمن الموت في طرف وفي نفس	وإن تسترت بالحُجَّاب والحرس
واعلم بأن سهام الموت قاصدة	لكل مُدرِّعٍ منا ومُتَّرِسِ
ما بال دينك ترضى أن تُدنِّسه	وثوبك الدهر مغسول من الدنس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها	إن السفينة لا تجري على اليبس

لكن العقول تسهو والقلوب تقسو.. يغلفها ران الذنوب، وتحجبها ظلمة المعصية.. حتى تصاب بالزكام فتحتاج إلى استنشاق ريح قميص يوسف يُلقى على القلب الأعمى فيرتد بصيرًا، نسج هذا القميص عمر بن عبد العزيز الخليفة الذي أحيا الله على يديه موات أمة خلال سنتين وخمسة أشهر من خلافته، وبعثت كلماته الروح في أوصال أمته، وحفظها لنا الرواة لعلها تبعث الروح فينا، قال- رحمه الله-:

«أيها الناس إنكم لم تُخلقوا عبثًا، ولن تُتركوا سدى، وإن لكم معادًا ينزل الله فيه ليحكم بين الناس ويفصل بينهم، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله، وحُرِم جنة عرضها السماوات والأرض، ألم تعلموا أنه لا يأمن غدًا إلا من حذر الله وخافه، وباع نافدًا بباقٍ

وقليلاً بكثير، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين؟ وستصير بعدكم للباقين، وكذلك حتى تُرَدَّ إلى خير الوارثين»[١].

ثم يقدم الدليل لمن طلب الدليل:

«ألا ترون أنكم تشيِّعون في كل يوم غاديًا، ورائحًا إلى الله تعالى، قد قضى نحبه، وانقضى أجله... حتى تغيِّبوه في بطن الأرض في شق صدع، ثم تتركوه غير ممهد ولا مُوسَّد، قد فارق الدنيا والأحباب، وباشر التراب، مواجهًا الحساب، مرتهنًا بما عمل، غنيًّا عما ترك، فقيرًا إلى ما قدَّم»[٢]، ووضع الرجل كمه على وجهه يبكي وما عاد إلى مجلسه حتى مات، وكانت وصية مُودِّع فكانت أكثر من صادقة.

وما أبلغ تصوير النبي ﷺ لطول الأمل حيث روى أنس بن مالك ﷺ: «خطَّ رسول الله ﷺ خطًّا وقال: هذا الإنسان، وخطَّ إلى جنبه خطًّا وقال هذا أجله، وخط آخر بعيدًا منه فقال: هذا الأمل، فبينما هو كذلك إذ جاءه الأقرب»[٣].

فبينما هو يحلم بالدور الفسيحة، والسيارات الفارهة، والأرباح الوافرة... إذ وافاه الأقرب (الأجل) كعادته... فجأة دون مقدمات.

فبات يروِّي أصول الفسيل

فعاش الفسيل ومات الرجل

---

(١) سيرة عمر بن العزيز لابن الجوزي ص (٢٠٠).

(٢) السابق ص (٢٠٠).

(٣) رواه البخاري واللفظ له والترمذي عن أنس كما في صحيح المشكاة رقم (٥٢٧٧).

إن طول الأمل مرض عضال وداء مزمن إذا أصاب الإنسان أهلكه لا محالة؛ لأن طول الأمل داء ولود يلد أمراضًا فرعية كثيرة، مثل «الكسل عن الطاعة، والتسويف بالتوبة، والرغبة في الدنيا، والنسيان للآخرة، والقسوة في القلب، لأن رقته وصفاءه إنما يقع بذكر الموت والقبر والثواب والعقاب»[(١)].

ويجملها الحسن البصري في عبارة واحدة:

«ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل»[(٢)].

أسبابه ودواؤه:

شخَّص أطباء القلوب هذا المرض وعزوه إلى:

(١) السبب الأول: الجهل:

فالشاب يستبعد الموت لصحته، ويستبعد الموت فجأة، ولا يدري أن ذلك غير بعيد، فالمرض فجأة غير بعيد، وكل مرض يقع فجأة، وإذا مرضت لم يكن الموت منك بعيدًا، فكم منا من يظن أنه سيظل يحمل الموتى على الأعناق، ولا يُقدِّر أن يُحمل هو على الأعناق، ويتعامى عن الحقيقة التي تهجَّاها لنا رسول الله ﷺ حرفًا حرفًا:

«إن الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك»[(٣)].

---

(١) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٢٣٧)- ط دار المعرفة.
(٢) البيان والتبيين (٣/ ٧٤).
(٣) رواه البخاري وأحمد عن ابن مسعود في (ص ج ص) رقم (٣١١٠).

عاش الفتى مرح الخطا فرحًا يسعى إذ قيل: قد مرض الفتى

إذ قيل: بات بليلة ما نامها إذ قيل: أصبح مُثخنًا ما يُرتجى

إذ قيل: أصبح شاخصًا وموجِّهًا ومُعدَّلًا إذ قيل: أصبح قد قضى

الدواء:

هذا الدواء تم تركيبه في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه على أيدى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإليك دواءنا:

مجالسة الصالحين ممن يذكرون بالآخرة، وسماع الحكمة من القلوب الطاهرة، وهي وصية الأنبياء والصالحين فينا: قال عيسى عليه السلام: «جالسوا من تذكِّركم بالله رؤيته، ومن يزيد في عملكم منطقه، ومن يُرغِّبكم في الآخرة عمله»[1].

وقد كان هذا النوع الكريم في السلف منتشرًا حيث كان التابعي محمد ابن سيرين إذا مر في السوق فما يراه من أحد إلا ذكر الله، وكان إذا ذكر الموت مات كل عضو منه، ويشترك معه في هذه الصفة الحسن البصري الذي كان يوصف كلامه بأنه أشبه بكلام الأنبياء، قال أشعب بن عبد الله أحد أصحابه: كنا إذا دخلنا على الحسن خرجنا ولا نعد الدنيا شيئًا. وقال يونس بن عبيد: كان الرجل إذا نظر إلى الحسن انتفع به وإن لم ير عمله، ولم يسمع كلامه، ثم وصفه فقال: كان إذا أقبل فكأنما أقبل من دفن حميمه، وإذا جلس فكأنما أمر بضرب عنقه، وإذا ذكرت النار فكأنما لم تخلق إلا له.

ومن نفس النوع صفوان المازني، يقول غيلان بن جرير: كانوا

---

(١) البيان والتبيين (٣/ ٨٧).

يجتمعون فلا يجدون لقلوبهم رقة فيقولون: يا صفوان .. حدِّث أصحابك، فيقول: الحمد لله، ما يقول غيرها، وتسيل الدموع من أعينهم كأنها أفواه المزادة. فاعلم أن هؤلاء ما ورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنها ورثوا خشية، فصاحِبْ ورثة ابن سيرين، والبصري، والمازني تكن من الفائزين وتُحشَر في صفهم.

(٢) السبب الثاني: حب الدنيا:

فإذا أنس المتسابق بها، ونسي أنها ممر وليست مقرًّا اتخذها قرارًا لا دارًا، وثقل عليه مفارقتها، فلا يفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، ولا يُقدِّر قربه، وإن خطر له الموت يومًا سوَّف، وقال: الأيام بين يديك، فعش شبابك، وما تزال الأيام تمضي حتى يكبر، فإذا كبر سوَّف وقال: حتى أفرغ من هذه الصفقة أو أرجع من هذه السفرة، وفجأة... الموت... وهنا يعلو الصراخ في القبور الذي يصك الآذان، ويسمعه كل الخلائق إلا الإنس والجن: رب لا تقم الساعة... رب لا تقم الساعة، وتكون مشاهد الحسرة وهم يتقلبون في نار الآخرة... فهذا يصرخ: يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله، وهذا يعوي: لو أن الله هداني، وثالث يُصبُّ على رأسه العذاب فيجأر: لو أن لي كَرَّة، ولكن هيهات... هيهات... قُضِي الأمر، ذهبت حلاوة البطالة وبقيت مرارة الأسف، ونضب ماء الكسل وبقيت رواسب الندامة، تركتم البكاء في الدار يُرحم فيها من بكي، وبكيتم في دار لا ينفع فيها البكاء ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤].

مثل الدنيا والموت

ذُكِر عن بعض الصالحين أنه قال: «رأيت في المنام رجلاً وهو في برية (غابة) وأمامه غزالة، وهو يجري خلفها وهي تفر منه، وأسد كأعظم ما يكون خلفه وقد همَّ أن يلحقه، والأسد يمد رأسه للرجل فلا يجزع منه، ثم يجري خلف الغزالة حتى لحق به الأسد فقتله، فوقفت الغزالة تنظر إليه وهو مقتول، إذ جاء رجل آخر قد فعل ما فعله المقتول فقتله الأسد ولم يدرك الغزالة، فخرج آخر ففعل ذلك، قال: فما زلت أعد واحدًا حتى عددت مائة رجل صرعى والغزالة واقفة، فقلت: إن هذا لعجب، فقال الأسد: مم تعجب؟ أو ما تدري من أنا ومن هذه الغزالة؟ فقلت: لا، فقال: أنا ملك الموت، وهذه الغزالة الدنيا وهؤلاء أهلها يجرون في طلبها، وأنا أقتلهم واحدًا بعد واحد حتى آتي على آخرهم»[1].

حتى متى وإلى متى نتوانى؟ ... وتعُبُّ من كأس الهوى ألوانا

والموت يطلبنا حثيثًا مسرعًا ... إن لم يزُرْنا بُكْرَةً مسَّانا

إنا لنوعظ بكرة وعشية ... وكأنما يُعنى بذاك سوانا

والآن فليلهج لسانك في شوق ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤]، دون تسويف أو تردد، فقطار التوبة ربما مضى إلى غير عودة، فالحذر من (سوف) كل الحذر فإنها المهلكة، « وما مثال المُسوِّف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة فرآها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة،

---

(١) بستان الواعظين ورياض السامعين لابن الجوزي ص (١٣٤)- ط دار الريان للتراث.

فقال: أؤخرها سنة ثم أعود إليها، وهو لا يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه»[١]، حتى يذهب عمره سُدى فيخرج من الدنيا خاوي الوفاض بادي الحسرات. قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، فسرها التابعي أبو الجوزاء أوس بن عبد الله البصري فقال: «تسويفًا»[٢].

الدواء:

أخي الحبيب: دواؤنا لهذا الداء العضال أخرجته مصانعنا الإيمانية بعناية ربانية ويتمثل في:

إخراج حب الدنيا من القلب، ومعرفة قدرها، وأنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، ولو كانت تساوى عنده ذلك ما سقى كافرًا منها شربة ماء، فيا سادرًا في غفلته أما آن لك أن تدرك ما أدركه الطفل عند مولده:

ولما تعد الدنيا به من شرورها ... يكون بكاء الطفل ساعة يوضع

و إلا فما يُبكيه منها وإنها ... لأنعم مما كان فيه وأوسع

إذا أبصر الدنيا استهلَّ كأنما ... يرى ما سيلقى من أذاها ويسمع

فإذا أبى متسابق أن يصدِّق كلامنا ولم يرضَ إلا الإثبات المادي أتيناه بكلام خير الأنام محمد ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يمشي أحدكم إلى اليمِّ، فأدخل إصبعه فيه، فما خرج منه فهو الدنيا»[٣].

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٥٨).

(٢) اقتضاء القول العمل ص (١٤٠)- الحافظ أبو بكر البغدادي- ط مجلس البنجري.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك عن المستورد كما في (ص ج ص) رقم (٥٤٢٣).

وأتبعناه بسهام الحق يصوِّبها إلى القلوب الغافلة الفضيل بن عياض فيقول: «لو كانت الدنيا ذهبًا يفنى، والآخرة خزفًا يبقى لكان ينبغي أن تؤثر خزفًا يبقى على ذهب يفنى، فكيف والدنيا خزف يفنى، والآخرة ذهب يبقى؟!»(١).

فإياك أن ترضى بالدنيا جزاء ومصيرًا، فالدنيا ظاهرها غرة وباطنها عبرة، وكان السلف إذا أقبلت الدنيا قالوا: ذنب عجلت عقوبته، وإذا أقبل الفقر قالوا: مرحبًا بشعار الصالحين، وهذا سيد الأنام ﷺ عرضت عليه كنوز الدنيا ومفاتيح خزائن الأرض فأبى إلا أن يجوع يومًا ويفطر يومًا زهدًا فيما حوته من فتنة، ورجوعًا إلى ما دلت عليه من عبرة.

والدنيا هدية بلقيس ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥]، فالتمس قبسًا من أنوار سليمان وامض على طريقه إذ قال: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦]، وارفضها وتطلع لما هو أنفس وأغلى، وكن من أبناء الآخرة، ولا تكن من أبناء الدنيا فالولد يتبع الأمَّ.

وضع هذه الحقيقة المجردة نصب عينيك، نبعثها لكل من غرق في حب دنياه وعبَّ منها حتى الثمالة:

وفي قبض كف الطفل عند ميلاده ... دليل على الحرص المركَّب في الحي

وفي بسطهما عند الممات إشارة ... ألا فاشهدوا أني رحلت بلا شي

---

(١) مكاشفة القلوب ص (١٢٧).

أو نضرب لك مثلا آخر نقرِّب به الصورة أكثر وأكثر ونهزُّ به النيام:

انظر إلى لاعب الشطرنج يجمعها مغالبًا ثم بعد الجمع يرميها

كالمرء يكدحُ للدنيا ويجمعها حتى إذا مات خلاها وما فيها

فإن لم تُجد كلماتنا في إخراج حب الدنيا من قلبك فالموت يكفيك ويفضل عليك فأحيِ ذكره في قلبك، وليس ذلك إلا بأن تنظِر في أعضائك، وتتدبر كيف سيأكلها الدود لا محالة، وسيبدأ بالعين اليمنى قبل اليسرى.

ناديتُ سكان القبور فأسكتوا فأجابني عن صمتهم ترب الحشا

قالت: أتدري ما صنعت بساكني؟ مزَّقت لحمهم وخرقت الكسا

وحشوت أعينهم ترابا بعدما كانت تأذى باليسير من القذى

أما العظام فإنني مزَّقتها حتى تباينت المفاصل والشوى

قطَّعت ذا من ذا ومن هذا كذا فتركتها مما يطول بها البلى

هذه النظرية طبقها عمر بن العزيز بعد أن أثبت صحتها لمحمد ابن كعب القرظي. يقول محمد: لما استُخلِف عمر بعث إليَّ وأنا في المدينة فلما دخلت عليه، جعلت أنظر إليه نظرًا لا أحرف نظري عنه فقال: يا ابن كعب!! إنك تنظر إليَّ نظرًا ما كنت تنظره؟ قلت: تعجبًا. قال: ما أعجبك؟ قال: يا أمير المؤمنين .. أعجبني ما حال من لونك، ونحل من جسمك، ونفي من شعرك، فقال: كيف لو رأيتني بعد ثلاثة أيام من موتي، وقد دُلِّيت من حفرتي، فسالت حدقي على وجنتي، وسال منخري صديدًا ودودًا.

باتوا على قلل الجبال تحرسهم ... غُلب الرجال فلم تنفعهم القلل

واستُنزِلوا من أعالي عِزِّ معقلهم ... وأسكنوا حفرًا يا بئس ما نزلوا

ناداهم صارخٌ بعدما دُفِنوا ... أين الأسرة والتيجان والحُلَل

أين الوجوه التي كانت مُحجَّبة ... من دونها تُضرَب الأستار والكُلَل

قد أفصح القبر عنهم حين ساءلهم ... تلك الوجوه عليها الدود يقتتل

قد طال ما أكلوا دهرًا وما طمعوا ... فأصبحوا بعد طول الأكل قد أُكِلوا

وأثمر ذكر الموت مع خامس الراشدين، وأدَّى الدور المطلوب منه على أكمل وجه، فأورثه زهدًا تتندَّر به الأجيال، هذا الزهد الذي استجلب به الخليفة الراشد معية الله ومعونته على أعباء الخلافة، واسمعوا الدليل: لما ولي عمر بن عبد العزيز بكى، فقال له رجل: كيف حبك للدنيا والدرهم؟ قال: لاأحبهما، قال: «لا تخف، فإن الله سيعينك»[1].

فإذا طبقت نظرية عمر فأتبعها بذكر من مات من الأقران تُشْفَ من حب الدنيا وتؤثر الآخرة عليها، وتدبر كيف أن الموت جاءهم من حيث لم يحتسبوا، فمن كان منهم قد استعد فقد فاز، ومن كان مغرمًا بطول الأمل فقد خسر خسرانًا مبينًا.



(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣٨).

لقد كان في قصصهم عبرة

وإليك خبر من ابتُلي بهذا المرض ولم يأخذ دواءنا فكان هذا مصيره:

قال منصور بن عباد: كان لي صديق مسرف على نفسه ثم تاب، وكنت أراه كثير التهجد والعبادة فافتقدته يومًا، فقيل: مريض، فاستأذنت عليه فوجدته مضطجعًا في وسط الدار، وقد اسود وجهه واحمرت عيناه، وغلظت شفتاه، فقلت له وأنا خائف: يا أخي أكثر من قول لا إله إلا الله، ففتح عينيه، ونظر إليَّ ثم غُشي عليه، كلما أعدت عليه الشهادتين نظر إليَّ ثم غشي عليه حتى قال لي: حيل بيني وبينها. قلت: لا حول ولا قوة إلا بالله ولماذا؟!! وأين الصلاة والقيام والقرآن؟ قال: كنت أفعل ذلك رئاء الناس، فإذا خلوت إلى نفسي أرخيت الستور، وشربت الخمور، وأقمت على ذلك حتى أصابني الله بالمرض وأشرفت على الهلاك، فقلت لابنتي: ناوليني المصحف، وقلت: اللهم اشفني ولا أعود إلى ذنب أبدًا، ففرَّج الله عني، فلما شُفيتُ عدت إلى ما كنت عليه، وخُنْت العهد الذي عقدته مع ربي، وبقيت على ذلك حتى ابتلاني الله بالمرض، وأوشكت على الهلاك، ففعلت كما فعلت في المرة الأولى فدعوت الله: اللهم اشفني وفرِّج عني ففرَّج الله عني، ثم عدت إلى ما كنت عليه من الذنب فوقعت في مرضي هذا، فأمرت أهلي أن يخرجوني وسط الدار كما تراني، فدعوت بالمصحف لأقرأ، فلم أتبين حرفًا واحدًا، فعلمت أن الله غضب عليَّ غضبًا شديدًا فرفعت بصري إلى السماء، وقلت: اللهم فرِّج عني يا

جبار السماوات والأرض فسمعت هاتفًا يقول:

تتوب عن الذنوب إذا مرضتا	وترجع للذنوب إذا شفيتا
فكم من كربة نجّاك منها	وكم كشف البلاء إذا بُليتا
أما تخشى بأن تأتي المنايا	وأنت على الخطايا قد دُهيتا

قال منصور: فوالله ما خرجت من عنده إلا وعيني تسكب العبرات، فما وصلت إلى الباب إلا وقيل لي: قد مات.

فانظر - حفظك الله- إلى طول الأمل كيف أدى إلى سوء الخاتمة، ولا نملك أن نعلق على الكلام، فالحروف تكاد تبرز فوق الأسطر يتحسسها كل أعمى إن شكا ضعف البصر، ومن لم يعتبر بغيره اعتبر به غيره، فالعمل العمل قبل أن يستوي عليك الليل والنهار، ورحم الله امرءًا نظر في نفسه، وبكى على ذنوبه، وتذكر قول ربه: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤]، يعني الأنفاس، آخر العدد خروج روحك. آخر العدد.. دخولك إلى قبرك.. فالبدار البدار فإنها الأنفاس لو حُبِست عنك انقطعت أعمالك التي تتقرب بها إلى الله وخرجت من حلبة السباق.

قف..!

حذار أن تفهم من كلماتنا أننا نُحرِّم طيبات ما أحل الله لك، ونطلب منك اعتزال الناس، فالدنيا المذمومة التي نحذر منها هي اتباع الشهوات واتخاذ المال أو الجاه، أو القوة وسيلة للانحراف عن

السبيل المستقيم، والزهد فيها معناه: ألا تستعبد الإنسان، وألا تجعله خادمًا لها، وألا يجري وراءها في جشع ولهفة، وحب يعمي ويصم، ويرسم القرآن صورة لذلك: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

يا عاشق الجنة ..

ليست البطولة أن تسبح في بحر هادئ فتدرك الشاطئ، لكن البطولة الحقة أن تعالج بحرًا هائجا متلاطم الأمواج ثم تنجو، أو تسير في الطريق الموحل ولا تتلطخ، أو تخوض المعركة الطاحنة دون أن يمسك فيها خدش.

ذمَّ رجل الدنيا عند علي بن أبي طالب ﷺ فأجابه:

«الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار نجاة لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها، ومهبط وحي الله، ومُصلًّى ملائكته، ومسجد أنبيائه، ومتجر أوليائه، ربحوا فيها الرحمة، واكتسبوا فيها الجنة، فمن ذا الذي يذمها؟!!»(١).

لكن من اشترك في نادي المتسابقين لا يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل، بل دنياه طوع أمر دينه، دنياه في يده أما دينه فهو في قلبه، وقلبه لا يتسع لشريكين ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤].

---

(١) البيان والتبيين (٢/ ١٠٢).

لـذا قـال النبـي ﷺ: «حلـوة الـدنيا مُـرَّة الآخـرة، ومُـرَّة الـدنيا حلـوة الآخرة»[(١)].

قال المناوي: «يعني لا تجتمع الرغبة فيها والرغبة في الله والآخرة بها، ولا تسكن هاتان الرغبتان في محل الواحد، و إلا طردت إحداهما الأخرى، واستبدت بالمسكن، فإن النفس واحدة والقلب واحد، فإذا اشتغلت بشيء انقطع ضده»[(٢)].

فاجعل الآخرة همك تأتك الدنيا راكعة تحت أقدامك، فإنك إن تجعل الدنيا همك لم يبال الله في أي أوديتها هلكْتَ. قال ﷺ: «من كان همه الآخرة جمع الله له شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا راغمة، ومن كان همه الدنيا فرَّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب الله له»[(٣)].

ولما حمل الإمام أحمد هَمَّ الآخرة وعمل له أتته الدنيا فركلها بعيدًا، وتركها قبل أن تتركه. قال إدريس الحداد: «لما كان أيام المحنة صُرِف إلى بيته، وحُمِل إليه مال، فردَّه وهو محتاج إلى رغيف، فجعل عمه إسحاق يحسب ما يرُدُّ، فإذا هو خمسمائة ألف، قال: يا عم.. لو طلبناه لم يأتنا، وإنما أتانا لما تركناه»[(٤)].

إن كنت قد اجتزت عقبة طول الأمل ولم تكن من ضحاياها اغتاظ الشيطان، وعضَّ أصابع الندم على صيد ثمين طار من بين يديه وجدَّ في نصب الكمين الثاني ليوقع الناجين في:

---

(١) رواه أحمد والطبراني والحاكم عن أبي مالك الأشعري كما في السلسلة الصحيحة رقم(١٨١٧).
(٢) فيض القدير (٣/ ٣٩٦)- عبد الرؤوف المناوي- ط دار النهضة الحديثة- بيروت.
(٣) رواه ابن ماجة عن زيد بن ثابت كما في (ص ج ص) رقم (٦٣٩٢).
(٤) سير أعلام النبلاء (١١/ ٣٠٠).

العقبة الثانية:

خواء القلب

من أخطر العقبات وأشدها لأن القلب (أصل الكُل، إن أفسدته فسد الكُل، وإن أصلحته صلح الكُل، إذ هو الشجرة وسائر الأعضاء أغصان، ومن الشجرة تشرب الأغصان وتصلح وتفسد، وإنه الملك وسائر الأعضاء تبع وأركان، وإذا صلح الملك صلحت الرعية وإذا فسد فسدت، فإذا صلاح العين واللسان والبطن وغيره دليل على صلاح القلب وعمرانه، وإذا رأيت فيها خللاً وفسادًا فاعلم أن ذلك من خلل في القلب وفساد وقع، بل الفساد فيه أكثر، فاصرف عنايتك إليه فأصلحه يصلح الكُل بالمرة وتستريح)[1].

وإذا غلب حب الشهوات في القلب وجد الشيطان بابًا فوسوس، وإذا غلب حب الطاعات أقبل الملك وألهم، والتطارد بين الملك والشيطان قائم حتى يظهر أحدهما على الآخر، ويرفع راية النصر، وفي ذلك يقول النبي ﷺ:

«ما من خارج يخرج من بيته، إلا ببابه رايتان راية بيد ملك، وراية بيد شيطان، فإن خرج لما يحب الله عز وجل اتبعه الملك برايته، فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع إلى بيته، وإن خرج لما يسخط الله اتبعه الشيطان برايته، فلم يزل تحت راية الشيطان حتى يرجع إلى بيته»[2]، والآن اسأل نفسك أيها المتسابق: تحت أي الرايتين تقف؟!!

---

(١) منهاج العابدين ص (١٣١).

(٢) رواه أحمد عن أبي هريرة والطبراني في الأوسط كما في مجمع الزوائد (١/ ١٣٢).

وإذا كانت الشهوات زاد الشيطان الذي يحيا عليه، ويموت بفقده فإن القلب السبَّاق إلى الله، يطهر نفسه من هذا الزاد الخبيث، ويستبدله بزاد الملائكة وهو الذكر، ولذلك لما شكا رجل إلى العلاء بن زياد وسوسة الشيطان قال: «إنما مثل ذلك مثل البيت الذي يمر عليه اللصوص فإن كان فيه شيء عالجوه، و إلا مضوا»[1].

شيء: شهوة جائمة، أو نظرة فاجرة، أو غفلة مهلكة تدعو الشيطان إلى الدخول فيدخل ويرتع وينصب خيمته.

وكما يطرد الليل النهار يطرد الذكر الشيطان، فإذا ذكر الله خنس، وإذا غفل انبسط على القلب ينسج بذلك حجابًا لا يخترقه نور الهداية، ولا ينفذ إليه ضياء القرآن، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥].

أول الغيث قطرة

لكن هذا الحجاب لا يظهر فجأة، إنما هي قطرة فقطرة حتى يأتي السيل، فكلمة غيبة من هنا تنكت بها نكتة سوداء على نظرة إلى حرام من هناك تنكت نكتة أخرى فينسج الشيطان من هذه وتلك حجابًا حول القلب، قال ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب ذنبًا نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر صُقِل قلبه، وإن زاد زادت حتى يعلو قلبه ذلك الرين الذي ذكر الله عز وجل في القرآن ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٢٨).

عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]⁽¹⁾.

ويقرأ ابن جرير هذا الحديث وكأن الله قد قذف في قلبه نورًا يملأ قلبه فيفيض علينا ويقول: أخبر النبي ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذٍ الختم من قبل الله والطبع فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر عنها مخلص، فذلك هو الختم والطبع الذي ذكره في قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡ﴾ [البقرة: ٧].

ويستمر القوم في تتبع آثار الأنوار المشرقة فيلقي هذه الكلمات النيِّرات ملك كريم على لسان شيخ القراء والمفسِّرين مجاهد بن جبر فيقول في مزيد إيضاح:

«القلب هكذا، وبسط كفَّه، فإذا أذنب الرجل قال هكذا، فعقد واحد، ثم إذا أذنب قال هكذا، وعقد اثنين، ثم ثلاثًا، ثم أربعًا، ثم رد الإبهام على الإصبع في الذنب الخامس، يطبع على قلبه فأيكم يرى أنه لم يُطبع على قلبه؟!»⁽²⁾.



(١) رواه أحمد والترمذي وابن حبان عن أبي هريرة، وحسنه الألباني في (ص ج ص) رقم (١٦٦٦).

(٢) ذم الهوى ص (٦٠)- ابن الجوزي- ط دار الكتب العلمية.

كيف تعبر هذه العقبة؟

لكن متسابقنا الفذ يحصِّن دفاعات قلبه ضد هجمات الشيطان ومحاولات تسلله، فإن نجحت إحدى المحاولات كانت في أوقات الفلتات على سبيل الخلسة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

تذكروا.. فاستغفروا... فأنابوا دون تلكؤ أو إبطاء لأنهم يعلمون أن (وقوع الذنب على القلب كوقوع الدّهن على الثوب، إن لم تُعجِّل غسله انبسط)[١].

وفي غرة هؤلاء المتسابقين الأفذاذ الفاروق عمر ﷺ الذي قطع على شيطانه كل السبل، فأيس منه بل خاف فلم يعد يجرؤ على أن يسلك طريقًا يرى فيه شبح الفاروق، وصدق رسول الله ﷺ حين قال مخاطبًا عمر ﷺ: «والذي نفسي بيده، ما لقيك الشيطان قط سالكًا فجًّا إلا سلك فجًّا غير فجك»[٢].

والسر في هذا أنه طهَّر قلبه من قوت الشيطان (الشهوات)، فمهما طلبت أن تنال مرتبة عمر، ولم تطهِّر قلبك من شهواته كما طهَّره عمر كان ذلك محالاً، فإن الذكر إذا نزل قلبًا فارغًا من الشهوات اندفع الشيطان كما يندفع المرض عند نزول الدوْاء على المعدة الخالية من الطعام ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧].

---

(١) المواعظ والمجالس ص (١٢٤).

(٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد عن سعد كما في (ص ج ص) رقم (٢٦٦٤).

فقـــدِّم تخليـــة القلـــب مـــن الشـــهوات بـــالتقوى

ثم داوِ بدواء الذكر يفر الشيطان منك كما فرَّ من عمر.

تخلية القلب من الشهوات إذن هي السبيل، أو إن شئت فسمِّها الحياة كما سماها الحسن البصري حين زفر بأنات قال فيها: «يا لها من موعظة لو صادفت من القلوب حياة»(١).

احرس بيتك

قال بعض الحكماء: «القلب مثل بيت له ستة أبواب ثم قيل لك: احذر ألا يدخل عليك من أحد الأبواب شيء فيفسد عليك بالبيت..فالقلب هو البيت والأبواب: العينان واللسان والسمع والبصر واليدان والرجلان، فمتى انفتح باب من هذا الأبواب بغير علم ضاع البيت»(٢).

والآن ونحن على مشارف اجتياز هذه العقبة نهمس في أذنك بما همس لنا به وهب بن الورد ونقول:

«اتق الله ولا تسب الشيطان في العلانية وأنت صديقه في السر»(٣).

الحمد لله عبرنا هذه العقبة ونسأل الله العون لكي نعبر...



(١) العقد الفريد (٣/ ٧٦)- ابن عبد ربه الأندلسي- ط دار الفكر.

(٢) رسالة المسترشدين ص (١١٥، ١١٦).

(٣) حلية الأولياء (٨/ ١٥٤)، صفة الصفوة (٤/ ١٣٥).

العقبة الثالثة:

العوائق السبعة

وقد فصَّلها لنا خير الخلق وأكرمهم على الله فرُوي عنه ﷺ أنه قال: «**بادروا بالأعمال سبعًا، هل تنتظرون إلا فقرًا منسيًّا، أو غنى مطغيًا، أو مرضًا مفسدًا، أو هرمًا مفندًا، أو موتًا مجهزًا، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمّر**»[1].

فهذه في الحقيقة سبعة أودية مهلكة يمر بها المتسابق في طريقه إلى اللحاق بركب **عكاشة** فيلقى عندها قتلى كثيرين صرعى هوى وعبيد شهوة، ضمَّهم الشيطان إلى حزبه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]، فعلى كل متسابق أن يتحسس موضع قدمه، وليحذر أن تنزلق قدمه فيهوي في وادٍ سحيق من هذه الأودية، حذَّره رسول الله ﷺ منه وأبى إلا المخالفة.

هذه الأودية يتبع بعضها بعضًا فما إن تعبر أحدها وتظن أنك قد نجوت حتى تسقط في الثاني فإن نجوت من «**فقرًا منسيًّا**» واجهك «**غنى مطغيًا**» ما لم يعصمك الله، وإن نجوت من «**هرمًا مفندًا**» جاءتك رصاصة طائشة، أو سيارة مسرعة فتلقى بذلك «**موتًا مجهزًا**»، فإن لم يكن شيء من ذلك فخروج الدجال بين يديك، وما أشدها من فتنة، أو الساعة فالساعة أدهى وأمَرُّ.

---

(١) رواه الترمذي عن أبي هريرة وفيه محرر بن هارون وهو متروك، ولذا ضعَّفه الألباني في ضعيف الجامع رقم (٢٣١٤).

لا تيأس

إن كان قد اعتراك فتور سببه لك طول الطريق، أو يأس من الوصول مرده كثرة العقبات أوصيناك وقلنا:

لا تستوحش لقلة السالكين ولا تغتر بكثرة الهالكين.

كان شيخ خراسان عبد الله بن المبارك عالم زمانه وأمير الأتقياء في وقته، وكان إذا أقام في بلده يكثر الجلوس في بيته فقيل له: ألا تستوحش؟ قال: «كيف أستوحش وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه»[١]، ولما قيل له: إذا أنت صليت لم لا تجلس معنا؟ قال: «أجلس مع الصحابة والتابعين أنظر في كتبهم وآثارهم فما أصنع معكم؟ أنتم تغتابون الناس»[٢].

«وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق واحرص على اللحاق به، وغضَّ الطرف عمن سواهم فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك فلا تلتفت إليهم فإنك متى التفتَّ إليهم أخذوك وعاقوك»[٣].

والمتلفت لنعيق الهالكين كالظبي «والظبي أشد سعيًا من الكلب ولكنه إذا أحس به التفت إليه فيضعف سعيه فيدركه الكلب»[٤].

ولنأخذ الدرس من هذا الأعرابي الذي ما نقل لنا الرواة اسمه، لكن ذلك لا يضرنا إذا فهمنا فهمه، مرَّ عمر بن الخطاب ﷺ بهذا

---

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٣٩).
(٢) السابق (٨/ ٣٥٣).
(٣) تهذيب مدارج السالكين ص (٣١).
(٤) السابق ص (٣١).

الأعرابي فسمعه يقول: اللهم اجعلني من الأقلين!! فقال: يا عبد الله وما الأقلون؟ قال: أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، ويقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، فقال عمر: كل الناس أفقه منك يا عمر!!

والآن اسرج جواد الخير لتقفز به فوق العقبة الأخيرة وهي:

العقبة الرابعة:

اتباع الهوى

عرَّف ابن الجوزي الهوى فقال: «الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه، وهذا الميل قد خلق في الإنسان لضرورة بقائه، فإنه لولا ميله إلى المطعم ما أكل، وإلى المشرب ما شرب، وإلى المنكح ما نكح، وكذلك كل ما يشتهيه، فالهوى مستجلِب له ما يفيد، كما أن الغضب دافع عنه ما يؤذي، فلا يصلح ذم الهوى على الإطلاق، وإنما يُذَمُّ المفرط من ذلك، وهو ما يزيد على جلب المصالح ودفع المضار»[1].

والمفرط من الهوى: كأن يميل الإنسان إلى ما يبغض الله وأن ينفر عما يحب الله، ولذا وجه الله داود فقال:

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

ومدح من خالف هواه فقال:

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠].

---

(١) ذم الهوى ص (١٨).

وذمَّ من تابع هواه فقال:

﴿هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وفي تعريف بليغ لاتباع الهوى يقول الشعبي: «إنما سُمِّي الهوى هوى لأنه يهوي بصاحبه في النار»[١]، أي أنه مشتق من السقوط، فالذي يتمكن منه الهوى، ويخالف أوامر الكتاب والسنة ووصايا الصالحين لن تراه إلا في تعثر ووقوع يكبه على وجهه، ليس في الدنيا فحسب بل في جهنم وبئس المصير.

أغلال الهوى

والهوى أسر، هكذا فهمه الأحرار، ومع ذلك يقع الناس فيه مرة بعد أخرى، لكن الأحرار يأبون الذل، ويرفضون الضيم فيكسرون هذا القيد، ويقيدون أنفسهم بقيد يمنع الانفلات إلى الهوى وهو ليس بقيد، إنما هو محض ارتباط بالله وأمره ونهيه، أمران لا ثالث لهما إذن: ارتباط بالله، أو تعلق بالشهوات.

القلب ما لم يكن بالله مرتبطًا فإنما هو بالأهواء جوّاب[٢]

سئل ابن المقفع عن الهوى فقال: هوان سُرقت نونه، فأخذه شاعر فنظمه وقال:

نون الهوان من الهوى مسروقة فإذا هويت فقد لقيت هوانًا

والمجاهد عند ابن الجوزي هو من جاهد هواه، قال- رحمه الله-:

---

(١) تفسير القرطبي ص (٥٩٨٧).

(٢) العوائق لمحمد أحمد الراشد ص (٤٨، ٤٩) بتصرف يسير.

«رأيتُ الخلق كلهم في صف محاربة والشياطين يرمونهم بنبل الهوى، ويضربونهم بأسياف اللذة، فأما المخلِّطون فصرعى من أول وقت اللقاء، وأما المتقون ففي جهد جهيد من المجاهدة، فلابد مع طول الوقوف في المعركة من جراح، فهم يجرحون ويداوون إلا أنهم من القتل محفوظون، لكن الجراح في الوجه شين، فليحذر ذلك المجاهدون»[1].

هؤلاء المجاهدون يرفع الله ذكرهم في الدنيا والآخرة فيذكرهم أهل الأرض ويتباهى بهم أهل السماء، وانظر إلى يوسف ﷺ وتأمل... لو وافق هواه من كان يكون؟ فلما خالفه خلَّد الله ذكره بسورة في القرآن تحمل اسمه تُتلى صباح مساء، وضرب به المثل في الصبر عن الشهوات، وانتصب قدوة على مر العصور والأزمان، ومثلاً يُحتذى به لمن آثر رضا ربه على موافقة هواه، بل ملَّكه الله الدنيا قبل الآخرة جزاء ما قدمت يداه، ومثوبة له على مخالفته هواه، وجعل ذلك لكل من سار بعده على نهجه، قال أبو علي الدقاق: «من ملك شهوته في حال شبيبته صيره الله ملكًا في حال كهولته كيوسف ﷺ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]»[2].

وبالعكس منه آدم ﷺ في موافقته لهواه، فقد كانت هذه نقيصة في حقه لا ينساها أبدًا، حتى إنه ليذكرها يوم القيامة حين تأتي إليه الناس يطلبون شفاعته «فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله

(١) صيد الخاطر ص (١٤٦، ١٤٧) بتصرف يسير.
(٢) ذم الهوى ص (٣٢).

بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا عند ربك، حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول لهم آدم: لست هناكم، ويذكر ذنبه الذي أصابه، فيستحيي ربه عز وجل من ذلك»[(١)].

فالمح مرتقى الصبر وهاوية الهوى وميِّز بينهما ثم اختر لنفسك ما شئت.

معشر المتسابقين

لا ترجعوا إلى الرضاع من الهوى بعد الفطام، فالرضاع للأطفال لا للرجال، ولا بد من الصبر على مرارة الفطام، فإن صبرتم كوفتتم بحلاوة الإيمان بديلاً عن لذة الهوى. قال تعالى: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾

[الأنفال: ٧٠].

وقال ﷺ: «من كتم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من الحور العين، يزوِّجه منها ما شاء»[(٢)].



---

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد عن أنس كما في (ص ج ص) رقم (٧٨٨٢).

(٢) رواه أصحاب السنن الأربعة وأحمد وأبو نعيم، وحسنه الألباني في (ص ج ص) رقم (٩٣٣٤).

رب جرح كان في مقتل

ومضار الهوى كثيرة، منها أنه:

* يصد عن الحق:

فترى متبع الهوى يوعظ بما فيه خيره ونفعه فيصرفه هواه عن اتباع الحق، وإن علم أن فيه نجاته.

إذا اعتادت النفس الرّضاع من الهوى

فــــإنّ فطـــام النفس عنه شديد

هلال الهدى لا يظهر بين غيوم الهوى، إنما يلوح لمن في الأسحار قام، وللصيام نوى، ونجوم الصلاح لا يراها من آثر النوم واستراح، بل يهتدي بها من هفا قلبه إلى نداء: حي على الفلاح.

ينتكس بالفطرة:

فلا تعود تعرف معروفًا، أو تنكر منكرًا، فتأنس بالمعصية وتألف الخطيئة، وصدق ابن القيم أيما صدق حين قال: «ولو عطّل المجرم المعصية وأقبل على الطاعة، لضاقت عليه نفسه، وضاق صدره، وأعيت عليه مذاهبه، حتى يعاوده، حتى إن كثيرًا من الفُسَّاق ليواقع المعصية من غير لذة يجدها، ولا داعي إليها، إلا لما يجد من الألم بمفارقتها»[1].

قال الشاعر يصف حال هذا المسكين:

وكـأس شُـرِبت علـى لـــذة   وأخـرى تـــداويت منهـا بهـا

---

(١) الداء والدواء ص (٨٨)- ابن قيم الجوزية- ط دار الفرقان.

يفسد العقل:

واتباع الهوى يفسد العقل، بل يدمِّره، فيتساوى ذلك الذي يتبع هواه مع البهائم، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]، هذا في الدنيا، أما في الآخرة فالبوار والتصايح في النار ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

قال بعض السلف:

«ما عصى اللهَ أحدٌ حتى يغيب عقله، وهذا ظاهر فإنه لو حضره عقله لحجزه عن المعصية، وهو في قبضة الرب تعالى، وتحت قهره، وهو مطلع عليه، وفي داره، وعلى بساطه، وملائكته شهود عليه ناظرون إليه، وواعظ القرآن ينهاه، وواعظ الإيمان ينهاه، وواعظ النار ينهاه، والذي يفوته بالمعصية من خير الدنيا أضعاف ما يحل له من السرور واللذة بها، فهل يقدم على الاستهانة بذلك كله والاستخفاف ذو عقل سليم؟!»[1].

ويوجه حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنه صيحة تنبيه إلى متبع الهوى الغارق في الذنب ويصرخ فيه:



«يا صاحب الذنب لا تأمن سوء عاقبته، ولما يتبع الذنب أعظم من الذنب إذا علمته: قلة حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال وأنت على الذنب أعظم من الذنب، وضحكك وأنت لا

---

(١) الداء والدواء ص (٩٢).

تدري ما الله صانع بك أعظم من الذنب، وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب، وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب، وخوفك من الريح إذا حرَّكت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب»[1].

يؤدي إلى تراكم العيوب:

لأن الهوى يورث النفس الغفلة عن عيوبها، ويُعمي البصيرة عن آفاتها، فيستأنس صاحب الهوى بالذنب، ويستلذ بالخطيئة، وفي المقابل ينفر من الطاعة ويضجر من النصيحة، ويحبسه جند الهوى في قبو الشهوات، فلا يعود يرى العيوب والآفات، وكيف يراها في غياب أنوار الطاعات التي تسطع من شموس القدوة وبدور الهداية؟!

إن المرآة لا تُريك عيوب وجهك مع صداها
وكذاك نفسك لا تُريك عيوب نفسك مع هواها

نداء

يا من فاته رفقة من ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦]، وحُرِم وسام ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، وغفل عن داء ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، وما طلب دواء ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:

(١) ذم الهوى ص (١٤٨، ١٤٩) بتصرف يسير.

٢٨]، فهو في أجواء الهوى يسرح، وفي ساحات الغي يمرح، هند بهواها رمته في الهند، وليلى بحسنها أطارت عقله ليلاً، وسحر أقلقته في السحر، اسمع منا يا مبتلى: إذا غرق القلب في المباح أظلم فكيف بالحرام؟!! وإذا غيَّر الورد الماء مُنِع من التوضؤ به[1]، فكيف بالنجاسة؟! أنى لمزكوم هوى أن يستنشق نسيم سحر!! وأنى لعاشق طين أن يحظى بحور عين!!

يا هذا.. تزعم أن الآخرة همك! ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [القيامة: ٢٠]، وتظن أن لك صبرًا على النار! ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ [المعارج: ١٥]، وتعجب من كثرة بلاياك وانغلاق الأبواب أمام وجهك وتسأل ما السبب؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

أما وقد علمت هذا فدع عنك التغني بأشعار الهوى، وانشغل بترتيل ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١]، وكن ممن أجاب النداء وكسر القيد، فحلِّق عاليًا مع الهمم العالية والعزائم الماضية تاركًا خلفه الدنيوي مستأثرًا لشهوة تذله، أو هوى يضله.

فإن فعلت كنت الرابح في سوق الآخرة، ولا يعود يجمعك بالبشر إلا صورة اللحم والدم، أما روحك وفكرك ولذتك وألمك فأنت فيها خلق جديد وأنموذج فريد.

أنموذج:

* كلمة الطمع في قاموسه ليس معناها الاغتراف من الملذات

---

(١) حكم الماء الذي خالطه طاهر كالصابون والزعفران والدقيق وغيرها أنه طهور مادام حافظا لإطلاقه، فإن خرج عن إطلاقه بحيث صار لا يتناوله اسم الماء المطلق كان طاهرًا في نفسه، غير مُطهِّر لغيره. فقه السنة ١/ ١٩ بتصرف يسير.

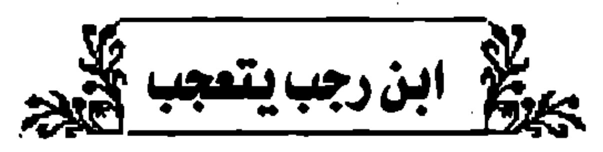
والشهوات، بل معناها السعي الحثيث في تحصيل الثواب وكسب الحسنات.

* واللهو عنده ليس لهو الفارغين والعابثين بل لهو المجدين بالسباحة والرماية وركوب الخيل كما أوصى الفاروق أمير المؤمنين.

* فإن رقص أو تبختر فليس رقص المخنثين وأشباه الرجال على ترانيم الموسيقى وألحان الغناء، وإنما رقص على أشلاء الأعداء في ساحات الوغى وميادين الفداء، وتبختر يغيظ الكافرين تعلمه من أبي دجانة صاحب العصابة الحمراء وأستاذ العزة والإباء.

* ومسامراته مع رفاقه ليست حول أحدث خطوط الموضة وآخر صيحات الأزياء إنما هي مدارسة حول أسباب الداء وطرق العلاج والدواء.

هذا هو الرابح عندنا: صناعة لا تقبل التقليد وطابع لا يُزيَّف، وفي الآخرة وأمام من لا تخفى عليه خافية ينكشف الغطاء، وينجلي الخفاء، ويُعرَف من بكى ممن تباكى.



ابن رجب يتعجب

ويقول:

«ابن آدم لو عرفت قدر نفسك، ما أهتها بالمعصية، أنت المختار بين المخلوقات، ولك أُعدت الجنة إن اتقيت، فهي إقطاع المتقين، والدنيا إقطاع إبليس، فكيف رضيتِ نفسك بالإعراض عن

إقطاعك، وزاحمت إبليس على إقطاعه، وأن تكون غدًا في النار من جمله أتباعه، إنما طردناه عن السماء لأجلك حين تكبر عن السجود لأبيك، وطلبنا قربك، لتكون مع خاصتنا وحزبنا فعاديتنا! وواليت عدونا ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ [الكهف: ٥٠][1].

يا مكـــــار

ويبعثها لك الحارث المحاسبي ليهتك الأستار عن كل مخادع مكار:

«اعلم أن كل عقل لا يصحبه ثلاثة أشياء فهو عقل مكار (مخادع):

(١) إيثار الطاعة على المعصية.

(٢) إيثار العلم على الجهل.

(٣) إيثار الدين على الدنيا»[2].

فيا من عانق هواه عناق الألف للام، إليك نرسل هذه الأبيات:

النفس تبكي على الدنيا وقد علمت	أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها	إلا التي كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنها	وإن بناها بشرٍّ خاب بانيها
أموالنا لذوي الميراث نجمعها	ودورنا لخراب الدهر نبنيها

---

(١) لطائف المعارف ص (١٨٣).

(٢) رسالة المسترشدين للحارث المحاسبي ص(٩٧).

كم من مدائن في الآفاق قد بنيت أمست خرابًا وأفنى الموت أهليها
أين الملوك التي كانت مسلطنة حتى سقاها بكأس الموت ساقيها
لا تركنن إلى الدنيا فالموت لا شكَّ يُفنينا ويُفنيها
واعمل لدار غدًا رضوان خازنها والجار أحمد والرضوان بانيها
قصورها ذهب والمسك طينتها والزعفران حشيش نابت فيها
أنهارها لبن مصفى ومن عسل والخمر يجري رحيقًا في مجاريها
والطير تجري على الأغصان عاكفة تسبِّح الله جهرًا في مغانيها
فمن يشتري الدار في الفردوس يعمرها بركعة في ظلام الليل يحييها





ثالثا: أن تنفذ الوصايا العشر

هذه عشر وصايا ما من متسابق عمل بهن إلا حاز شرف القرب، وذاق حلاوة الوصل، وأوشك على إدراك خط النهاية، أما من ضيعهن استخفافًا بهن أو انشغالاً عنهن فقد فاته خير النعم، وعانى زلل التقدم، وبات يتقلب على فراش الحسرة والندم.

قد لا يستغرق قراءة كل وصية غير دقيقة واحدة لكن تعويد النفس على تنفيذ هذه الوصايا يستغرق أكثر من ذلك بكثير، فاستعن بالله فهو نعم المعين وعليه الاعتماد والتكلان.

(١) ابدأ بالأساس:

ونقصد بالأساس الفرائض، وبنيان بلا أساس كجيش بلا حراس، وجسد بغير رأس، فهي أحب الأعمال إلى الله حيث يقول النبي ﷺ في الحديث الذي يرويه عن رب العزة: «وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه»[(١)]، وقد كانت آخر كلمات يلهج بها أبو بكر الصديق ﷺ قبل موته حيث قال: «إن الله لا يقبل النافلة حتى تُؤدَّى الفريضة»[(٢)].

ويمضي موكب الرشد يقوده بعد الصديق عمر بن الخطاب ﷺ الذي كان يتفقد بنفسه تنفيذ هذه الوصية في الرعية دون أن تشغله أعباء الخلافة ومشاكل الحكم عن ذلك، فقد يومًا سليمان بن أبي حثمة

---

(١) رواه البخاري في الرقاق رقم (٦٠٢١).

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص (٤٩٢).

في صلاة الصبح وفي اليوم التالي غدا إلى السوق وكان مسكن سليمان بين السوق والمسجد النبوي، فلقي عمر الشفاء أم سليمان فقال لها: لم أر سليمان في الصبح، فقالت: إنه بات يصلي فغلبته عيناه، قال عمر: «لأن أشهد صلاة الصبح في جماعة أحب إليَّ من أن أقوم ليلة»[1].

وقد أماط ابن الجوزي اللثام عن هذه الحيلة الماكرة لإبليس في كتابه القيم «تلبيس إبليس» فقال:

«وقد لبَّس إبليس على جماعة من المتعبدين، فأكثروا من صلاة الليل وفيهم من يسهره كله، ويفرح بقيام الليل وصلاة الضحى أكثر مما يفرح بأداء الفرائض، ثم يقع قبيل الفجر فتفوته الفريضة، أو يقوم فيتهيأ لها فتفوته الجماعة، أو يصبح كسلان فلا يقدر على الكسب لعائلته»[2].

وليس هذا في أمر الصلاة فحسب، وإنما في سائر الأعمال، دعونا نستمع إلى ابن الجوزي وهو يُكمِل سرد مشاهداته فيقول:

«رأيتُ كثيرًا من الناس يتحرَّزون من الربا، ويتهجدون بالليل ويؤخِّرون الفريضة عن الوقت في أشياء يطول عدها من حفظ فروع وتضييع أصول»[3].



فلا تكن ممن طلب الربح فأضاع رأس المال، فصفة هذا انه يسيء ويظن انه محسن، يظلم ويحسب انه عادل، يأكل الحرام ويرى انه متورع،

---

(١) رواه مالك في الموطأ رقم (٢٩١)- ط دار الكتب العلمية.

(٢) تلبيس إبليس ص (١٤٨، ١٤٩)- ابن الجوزي- ط مكتبة الإيمان- المنصورة.

(٣) صيد الخاطر ص (١٢٥، ١٢٦).

ومثله يبذر ولا يحصد، ويجني ولا يأكل، فالحذر الحذر أن تسلك طريقه فيكتب اسمك في سجلات ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

(٢) القليل الدائم:

قالت عائشة -رضي الله عنها -تصف حال رسول الله ﷺ: «كان أحب العمل إليه ما دُووِم عليه وإن قلَّ»[١].

ويوضح المناوي السبب في ذلك فيقول: «لأن النفس تألفه فيدوم بسببه الإقبال على الحق، ولأن تارك العمل بعد الشروع كالمعرض بعد الوصل، ولأن المواظب ملازم للخدمة، وليس من لازم الباب كمن جد ثم انقطع عن الأعتاب»[٢].

وحين نظر أبو الحسن الماوردي من خلال عدسته المكبَّرة إلى هذه الظاهرة رأى بوضوح أن «الاستكثار من الزيادة:

أ- إما أن يمنع من أداء اللازم فلا يكون إلا تقصيرًا لأنه تطوع بزيادة أحدثت نقصًا، وبنفل منع فرضًا.

ب- وإما أن يعجز عن استدامة الزيادة، ويمنع من ملازمة الاستكثار، من غير إخلال بلازم ولا تقصير في فرض، فهي إذن قصيرة المدى قليلة اللبث.

وقليل العمل في طويل الزمان أفضل عند الله من كثير العمل في

(١) رواه الترمذي والنسائي عن عائشة وأم سلمة كما في (ص ج ص) رقم (٤٥٠٦).
(٢) فيض القدير (١/ ١٦٥).

قليل الزمان، لأن المستكثر من العمل في الزمان القصير قد يعمل زمانًا ويترك زمانًا، فربما صار في زمان تركه لاهيًا، أو ساهيًا، والمقلل في الزمان الطويل مستيقظ الأفكار مستديم التذكار»[١].

هذه وصية ثمينة لأن شراك الشيطان التي ينصُبها للإنسان: أن يستغل قوة الانطلاق التي بدأ بها المتسابق سباقه، فيحمله من الأحمال والأثقال ما يقعده ويحبسه عن إكمال الطريق، فيرجع من حيث أتى، ومثل هذا المتسابق لم يعلم أن سباقنا لا يعرف أسلوب الطفرة، وإنما هو ارتقاء مدارج السالكين درجة درجة، وسلوك طريق عكاشة خطوة خطوة، ومعني هذا: استكمال الفرائض أولاً، ثم بعد الفرائض تستكمل النوافل نافلة نافلة في ارتقاء متأن مع ثبات راسخ، هذا هو نهج النبي ﷺ حيث **«كان إذا عمل عملاً أثبته»**[٢].

أما من أبى المخالفة فيُخشى عليه من الفترة بعد المجاهدة، والقعود بعد النشاط، ولهذا كانت وصية النبي ﷺ **لعبد الله بن عمرو** ؓ: **«يا عبد الله .. لا تكن مثل فلان، كان يقوم من الليل فترك قيام الليل»**[٣].

(٣) انس نفسك:

ولسنا نعني بذلك إهمالها وترك تهذيبها، ولكننا نعني بابًا من أبواب الخير الوفير غفل عنه أكثر المتسابقين، فانصرفوا إلى طاعات لا يتعدى نفعها أنفسهم كقيام الليل وصيام التطوع وغيرهما من النوافل، تاركين

---

(١) أدب الدنيا والدين ص (١٣٠)- أبو الحسن الماوردي- ط المكتبة القيمة.

(٢) رواه مسلم وأبو داود كما في (ص ج ص) رقم (٤٦٣٢).

(٣) رواه الشيخان وأحمد والنسائي عن ابن عمرو كما في (ص ج ص) رقم (٧٨٢٢).

خلف ظهورهم طاعات يتعدى نفعها النفس إلى الغير، مع أنها قد تكون أوفر أجرًا وأعظم ربحًا وأثقل في ميزان الله، بل قد تصل إلى درجة فروض الأعيان، وانظر معي في هذا الحديث وتأمل فيما تحته خط:

قال النبي ﷺ: «من أبواب الصدقة التكبير، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وأستغفر الله، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويعزل الشوك عن طريق الناس، والعظم والحجر، وتهدي الأعمى، وتسمع الأصم والأبكم حتى يفقه، وتدل المستدل على حاجه له قد علمت مكانها، وتسعى بشدة ساقيك إلى اللهفان المستغيث، وترفع بشدة ذراعيك مع الضعيف، كل ذلك من أبواب الصدقة منك على نفسك»[1].

ثم قارن بين ما خط تحته خط وما لم يخط، أي قارن بين طاعات متعدية النفع تخدم الجماعة وطاعات فردية لا ينتفع بها غير صاحبها، واعقد نسبة مئوية قدِّر على أساسها أهمية هذه الوصية.

وكأن رسول الله ﷺ يقول: هذه أبواب كثيرة للخير لا يلتفت إليها الكثيرون، فاذكروها ولا تهملوها واعملوا بها سواء بسواء مع التسبيح والتحميد والتهليل، ولاحظ أنه لم يستطرد في سرد الطاعات الفردية لأن الكل يعرفها ويعمل بها، لكنه طرق الأبواب المغلقة وأرشد إلى العبادات المهجورة.

ولهذا كانت وصيتنا: انس نفسك واذكر غيرك ولو كان كلبًا، فإنك إن فعلت غفر لك ذنبك مهما عظم، فقد غفر الله لمومسة بذلك، فكيف لا يغفر لك؟ قال ﷺ:

---

(١) رواه أحمد والنسائي وابن حبان عن أبي ذر كما في (ص ج ص) رقم (٣٩٢٦).

«غُفِر لامرأة مومسة مرَّت بكلب على رأس ركي، يلهث كاد يقتله العطش، فنزعت خفها، فأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء، فغُفِر لها بذلك»[1].

بل إن نسيان الغير وغلظة معاملتهم لهو باب من أبواب النار، ولو كان هذا الغير هرة. قال النبي ﷺ: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من حشاش الأرض»[2].

فليكن اسمك نداء النجدة للمستغيثين..

وليكن قلبك مرفأ الراحة للمكروبين..

وليكن بيتك مصنع السعادة للحزانى والبائسين..

(٤) الاستثمار الرابع:

قال ﷺ: «سبع يجري للعبد أجرهن وهو في قبره بعد موته: من علَّم علمًا، أو أجرى نهرًا، أو حفر بئرًا، أو غرس نخلاً، أو بنى مسجدًا، أو ورَّث مصحفًا، أو ترك ولدًا يستغفر له بعد موته»[3].

كل الناس تُطوى صحائفهم بعد موتهم إلا هؤلاء النفر الذين جاء ذكرهم في الحديث، فيظل عملهم ينمو وموازينهم تثقل إلى أن تقوم الساعة ويرث الله الأرض ومن عليها.

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة كما في (ص ج ص) رقم (٤١٦٣)، والركِيُّ: هي البئر قليلة الماء.

(٢) رواه الشيخان وأحمد عن أبي هريرة والبخاري عن ابن عمر كما في السلسلة الصحيحة رقم (٢٨).

(٣) رواه البزار عن أنس، وحسنه في (ص ج ص) رقم (٣٥٩٦).

كل هذه الأعمال استثمارات رابحة يطول أمدها ويستمر عطاؤها، فيحيا المتسابق وهو ميت، ويبقى بها وربما لم يبق من جسده شيء، وتوزع أرباحها في يوم يُجازى فيه الناس بمثاقيل الذر: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

(٥) تنويع فنون الحسنات:

ذلك أن النفس ملولة لا تحب لونًا واحدًا، بل تميل إلى التغيير وتضجر من الرتابة، من أجل هذا وجب التنويع مع حفظ الفرائض وعدم تضييعها بالطبع، واذكر إن نسيت الوصية رقم (١).

ولنضرب لذلك مثلين:

أ- كلنا يعلم مثلاً أنه ما من دواء يحيي القلب ويُلين قسوته أكثر من ذكر الموت، لكن النبي ﷺ يصف لنا دواء جديدًا سيرًا على مبدأ التنويع فيقول: **«أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم وامسح رأسه وأطعمه من طعامك يلن قلبك وتدرك حاجتك»**[(١)].

ب- أخبر النبي ﷺ عن سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله فذكر فيهم **«إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب**

---

(١) رواه الطبراني عن أبي الدرداء كما في السلسلة الصحيحة رقم (٨٥٢).

العالمين، ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»[1].

لكنه في حديث آخر يخبرنا أن الأمر ليس مقصورًا على هؤلاء السبعة فحسب بل في التنويع معالجة لملل النفس وتوسيع لدائرة العفو. قال ﷺ: **«من أنظر معسرًا، أو وضع عنه أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله»**[2].

(٦) الدال على الخير كفاعله[3]:

وصية عظيمة إن عملت بها حزت قصب السبق، عمل مَنْ دعوته بما قلت أم لم يعمل، لأن الأجرة تُعطى على الدعوة لا على الثمرة.

والدعاة إلى الله أعلى الخلق درجة، وهم ورثة الأنبياء ومصابيح الهدى في دياجير الظلام، بهم يرشد الضال، ويهتدي الحيران، ويُغاث اللهفان، ويوقظ النائم، وينشط الكسلان، ويُقوَّم المعوج، ويهدأ المضطرب، ويبرأ السقيم، ويُشفى العليل، فما أشرفها من مهمة وما أعظمها من غاية **﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾** [فصلت: ٣٣].

ومن هذه الصفوة المباركة كان سعد بن معاذ ﷺ الذي كان في الأنصار بمنزلة أبي بكر ﷺ في المهاجرين كما يقول ابن القيم. عرض

---

(١) رواه الشيخان ومالك عن أبي هريرة كما في (ص ج ص) رقم (٣٥٩٧).
(٢) رواه أحمد ومسلم عن أبي اليسر كما في (ص ج ص) رقم (٥٩٨٢).
(٣) رواه البزار عن ابن مسعود والطبراني عن سهل بن سعد كما في السلسلة الصحيحة رقم (١٦٦٠).

عليه مصعب بن عمير ﷺ الإسلام فأسلم، وفور إسلامه رجع إلى قومه ينفذ الوصية. قال: «يا بني عبد الأشهل .. كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فما أمسى فيهم رجل ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة»[١].

ولهذا استحق مكافآت ثمينة أعلن عنها رسول الله ﷺ فقال: «هذا العبد الصالح الذي تحرَّك له العرش، وفتحت أبواب السماء، وشهده سبعون ألفًا من الملائكة لم ينزلوا الأرض قبل ذلك»[٢].

ولما حُملت جنازته قال المنافقون: ما أخفها، قال النبي ﷺ: «إن الملائكة تحمله»[٣]، ولما أُهدِي للنبي حلة حرير جعل الصحابة يمسونها ويعجبون من لينها، فقال النبي ﷺ: «أتعجبون من لين هذه ؟!! لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها وألين»[٤].

(٧) سبق درهم مائة ألف درهم:

ويبين النبي ﷺ السر في ذلك فيقول: «رجل له درهمان أخذ أحدهما فتصدَّق به، ورجل له مال كثير فأخذ من عرضه مائة ألف فتصدَّق بها»[٥].

ذلك أن النوع أهم من الكم، فمن قسم ماله شطرين وتصدَّق

---

(١) الرحيق المختوم ص (١٧٢)- صفي الرحمن المباركفوري- ط دار الرحمة.

(٢) رواه النسائي وابن سعد وأحمد عن ابن عمر وإسناده صحيح.

(٣) رواه الترمذي في المناقب عن أنس رقم (٣٧٨٣)، وقال: حديث صحيح.

(٤) رواه الشيخان عن البراء كما في اللؤلؤ والمرجان رقم (١٦٤٠) واللفظ للبخاري.

(٥) رواه النسائي عن أبي ذر وابن حبان والحاكم عن أبي هريرة، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم (٨٧٥).

بالنصف لا شك أنه كان أحوج إلى ما تصدق به ممن تصدق بمائة ألف من عرض ماله، وبقي له أضعاف أضعاف ما تصدق به، ولهذا كان «**أفضل الصدقة أن تصدَّق وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى وتخاف الفقر**»[١].

عمر بن الخطاب ﷺ كان ممن نفذ الوصية فكان صاحب هذا الدرهم الذي سبق مائة ألف. عمد في غزوة تبوك إلى نصف ماله ليتصدق به قائلاً: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته، لكن صاحب النبي في الغار يغار، ويأبى أن يسبقه أحد فيتصدق بماله كله عن طيب نفس لأن من حاز شرف ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ [التوبة: ٤٠]، لا يأسى على دفع درهمين، ولأن من بذل روحه هان عليه بذل ماله، فيجيب أبو بكر النبي ﷺ حين يسأله: «**يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك**»؟ يقول: أبقيت لهم الله ورسوله، ولا يملك عمر إزاء هذا إلا أن يقر بالفضل لأبي بكر ويقول: لا أسبقه إلى شيء أبدًا.

(٨) فرصة للتعويض:

قال النبي ﷺ: «من نام عن حزبه، أو عن شيء منه، فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كُتِب له كأنما قرأه من الليل»[٢].

والأمثلة على ذلك كثيرة منها قول النبي ﷺ: «**من نام عن وتره فليصلِّ إذا أصبح**»[٣]، وقوله: «**من لم يصل ركعتي الفجر فليصلهما**

---

(١) رواه الشيخان وأحمد عن أبي هريرة كما في (ص ج ص) رقم (١١١٢).
(٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي كما في صحيح أبي داود رقم (٦٦١).
(٣) رواه الترمذي عن زيد بن أسلم مرسلاً، وصححه الألباني في الإرواء رقم (٤٢٢).

بعد ما تطلع الشمس»[١]، ولما رأت أم سلمة النبي ﷺ يصلي ركعتين بعد العصر وسألته عن ذلك أجابها وقال: **«يا ابنة أبي أمية: سألت عن الركعتين بعد العصر، وإنه أتاني ناس من عبد القيس فشغلوني عن الركعتين اللتين بعد الظهر، فهما هاتان»**[٢].

وقد ذكر ابن القيم في صيام النبي ﷺ في شعبان أكثر من غيره ثلاثة أوجه: منها أنه كان يصوم ثلاثة أيام في كل شهر فربما شغل عن الصيام أشهرًا، وجمع ذلك في شعبان ليدركه قبل صيام الفرض (رمضان)، وكان النبي ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان (فلما فاته الاعتكاف مرة لعارض سفر اعتكف في العام المقبل عشرين يومًا)[٣].

(٩) احذر النسَّافات:

أي التي تنسف العمل وتبعثر الأجر، والمحصلة عناء بغير جزاء وتعب بغير ثواب. قال النبي ﷺ: **«لأعلمن أقوامًا من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاء، فيجعلها الله هباء منثورًا، أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم قوم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها»**[٤].

هل عرفت إذًا ما هي النسافات؟ إنها ذنوب الخلوات لا تبقي طاعة للإنسان ولا حسنة في الميزان إلا نسفتها، وإذا كان العدل أن

(١) رواه أحمد والترمذي عن أبي هريرة كما في (ص ج ص) رقم (٦٤١٨).
(٢) رواه البخاري وأبو داود كما في (ص ج ص) رقم (٧٧٧٢).
(٣) فتح الباري (٤/ ٢٨٥).
(٤) رواه ابن ماجة عن ثوبان كما في (ص ج ص) رقم (٤٩٠٤).

توافق السريرة العلانية، والجور أن تكون السريرة أخبث من العلانية، فإن الفضل أن تكون السريرة أفضل من العلانية، ومن أهل الفضل كان الإمام أحمد.

سأله أبو حامد الخلفاني يومًا فقال: يا أبا عبد الله. هذه القصائد الرقاق التي في ذكر الجنة والنار أي شيء تقول فيها؟ فقال: مثل أي شيء؟ قلت: يقولون:

إذا ما قال لي ربي أما استحييت تعصيني
وتُخفي الذنب عن خلقي وبالعصيان تأتيني

فقال: أعد عليَّ، فأعدت عليه، فقام ودخل بيته ورد الباب فسمعت نحيبه من داخل البيت وهو يقول:

إذا ما قال لي ربِّي أما استحييت تعصيني
وتُخفي الذنب عن خلقي وبالعصيان تأتيني

يأبى بذلك أن يُصرف عن باب أهل الفضل، وكيف يُصرَف و"أحمد" ممنوع من الصرف؟!

فماذا كان ثوابه لقاء فضله؟

أ- ثوابه في الآخرة لا يعلم به أحد، لأن الجزاء من جنس العمل.. أخفى صالح عمله عن الناس في الدنيا فأخفى الله عظيم ثوابه عن الناس في الآخرة ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

ب- أما ثوابه في الدنيا فأكثر من أن يُحصى، وإن لم يكن إلا أنه

كان مستجاب الدعوة لكفاه. قال علي بن أبي حرارة: «كانت أمي مُقعدة نحو عشرين سنة، فقالت لي يومًا: اذهب إلى أحمد بن حنبل فسله أن يدعو الله لي، فسرت إليه، فدققت عليه الباب، فقال: من هذا؟ فقلت: رجل من أهل هذا الجانب سألتني أمي وهي مُقْعدة أن أسألك أن تدعو الله لها، فسمعت كلام رجل مغضب وقال: نحن أحوج أن تدعو الله لنا، فوليت منصرفًا فخرجت عجوز من داره فقالت: أنت الذي كلمت أبا عبد الله؟ قلت: نعم، قالت: قد تركته يدعو لها، قال: فجئت من فوري إلى البيت، فدققت الباب فخرجت أمي على رجليها تمشي حتى فتحت لي الباب وقالت: قد وهب الله لي العافية»[1].

وانت ايها المتسابق: إن أردت أن تكون مستجاب الدعوة مثله فكن من أهل الفضل، فإن لم تكن فليس أقل من أن تكون من أهل العدل، وحذار أن تكون من أهل الجور فتُعرِّض نفسك للنسّافات.



(١٠) بين الشِّرَّة والفترة:

في سفرتك الإيمانية، وجدك واجتهادك قد تتعب أو تمل، فتفتر همتك، وتبرد حميتك، فهل تتوقف وتنسحب من السباق؟ أم ماذا تفعل؟

في البداية لابد أن تعلم أن هذا أمر طبيعي يرجع إلى طبيعة النفس البشرية، وقد أخبرنا النبي ﷺ بهذه الحقيقة: «إن لكل عمل

(١) مناقب الإمام أحمد ص (٢٩٦) بتصرف يسير- ابن الجوزي- ط دار الآفاق الجديدة.

شِرَّة، ولكل شِرَّة فترة، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى، ومن كانت إلى غير ذلك فقد هلك»[١].

لكن سلوك الناس يتفاوت حيال هذه الفترة وينقسم إلى:

أ - اتباع لسنة الرسول ﷺ

والتي يشرحها أبو عبدالرحمن عبد الله بن مسعود ﷺ كما فهمها من رسول الله ﷺ فيقول: «إن للقلوب شرَّة وإقبالاً، وإن للقلوب فترة وإدبارًا، فاغتنموها عند شرَّتها وإقبالها، ودعوها عند فترتها وإدبارها»[٢].

في حالة الإقبال: تزيد من النوافل، كصيام التطوع، وقيام الليل، وصدقة السر وغيرها.

في حالة الإدبار: نلزم أنفسنا بالفرائض، فلا ننزل عن شيء منها، قد نترك النوافل، فتركها يحرمنا من الأجر ولا يوجب العقوبة، أما الفرائض فتركها يوجب العقوبة، فلنعض عليها بالنواجذ.



لا معنى إذن أن نسمع من متسابق أنه لا يصلي الفجر هذه الأيام لأنه في حالة فتور، أو أنه لا يقرأ ورده من القرآن لأنه في حالة فتور، فسنة النبي ﷺ التي شرحها لنا ابن مسعود ﷺ هي أن تلزم نفسك بالفريضة حتى في حالات الفتور، هذه سنة النبي ﷺ فاتبعها تهتدِ.

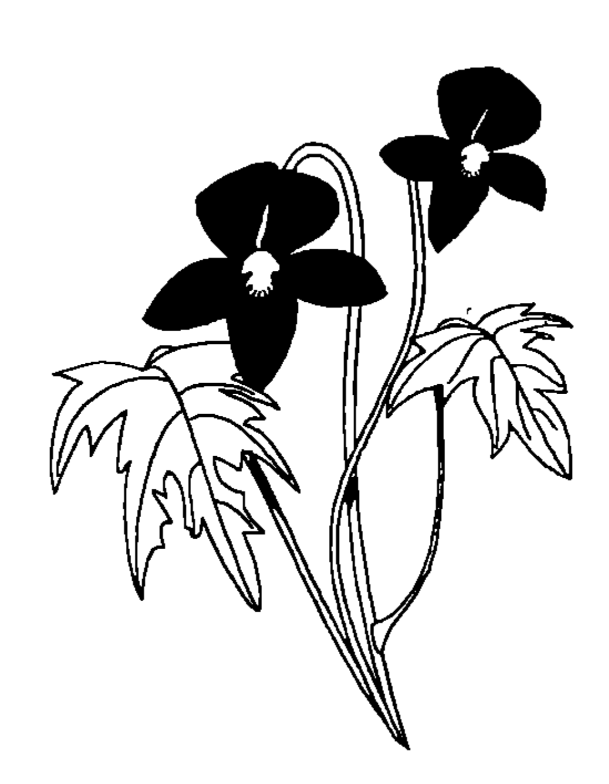
---

(١) رواه الإمام أحمد وابن حبان كما في (ص ج ص) رقم (٢١٥٢).
(٢) حياة الصحابة (٤/ ٣٤٢) نقلاً عن الحلية (١/ ١٣٤).

ب - اتباع لغير سنة الرسول ﷺ:

ويتمثل في الانسحاب من (سباق نحو الجنان)، ثم تضييع الفرائض والغرق في الشهوات، واتباع الأهواء عند حلول موسم الفتور، وهو ما عبرَّ عنه الرسول ﷺ بالهلاك.

ليس معنى أن نُقِر بأن الفتور طبيعة بشرية أن تغُطَّ في نوم عميق، وتسمع وتطيع هاتف الشيطان: «عليك ليل طويل فارقد»، ولكن كن خفيف النوم، ونم- إذا نمت- وسط الطريق لعل أحد إخوانك يوقظك عن قريب، وإياك والتفرد فإن فيه الهلكة، وارجع إلى واحات الإيمان وتزود منها إن نفد زادك لتنطلق من جديد بعزم من حديد.



رابعًا: أن تعرف أي العمل أفضل؟

إن معيار أفضلية الأعمال محدَّد بأربعة أمور رئيسة:

(١) مراعاة الزمان:

فأفضل الأعمال في رمضان القيام لقول النبي ﷺ: «من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»[١]، والجود لأن النبي ﷺ: «كان أجود ما يكون في رمضان»[٢]، فإذا دخلت العشر الأواخر فأفضل الأعمال إلى الله الاعتكاف وعدم الخروج من المسجد، فإذا أقبلت العشر الأولى من ذي الحجة كان أفضل العمل إلى الله هو العمل الصالح ويسبق الجهاد لقوله ﷺ: «إلا رجلا خرج بماله وبنفسه فلم يرجع منهما بشيء»[٣]، وأفضل الأعمال في شهر الله المحرم وشعبان الصيام لقوله ﷺ: «وأفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم»[٤]، وقول عائشة- رضي الله عنها-: «ما رأيته في شهر أكثر صيامًا منه في شعبان»[٥].

وأفضل الأعمال وقت تعليم الجاهل: الإقبال على تعليمه والاشتغال به عن غيره، وأفضل الأعمال وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك.

---

(١) رواه الشيخان عن أبي هريرة كما في (ص ج ص) رقم (٦٣١٦).
(٢) رواه البخاري والنسائي وأحمد عن ابن عباس.
(٣) رواه الجماعة إلا مسلم والنسائي واللفظ لأحمد.
(٤) رواه مسلم عن أبي هريرة والطبراني عن جندب كما في (ص ج ص) رقم (١١٢٧).
(٥) رواه البخاري ومسلم وأبو داود كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم (١٠١٤).

وأفضل الأعمال في الأسحار: الصلاة والاستغفار لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، وأفضل الأعمال عند الإفطار: الدعاء لقوله ﷺ: **«ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، ....»**[١]، وأفضل الأعمال عند سماع الأذان: ترديده.

(٢) مراعاة الأماكن:

فمن الأماكن ما يكون العمل فيه أفضل من غيره، كالصلاة في المسجد الحرام تعدل مائة ألف صلاة فيما سواه، والصلاة في المسجد النبوي تعدل ألف صلاة فيما سواه، والصلاة في المسجد الأقصى تعدل خمسمائة صلاة فيما سواه.

وأفضل الصلاة صلاة المسجد هذا للمكتوبة، أما للنافلة فالأفضل البيت لقول النبي ﷺ: **«فإن أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة»**[٢]، والذكر والدعاء عند الصفا والمروة أفضل من الصلاة، والطواف للقادم خير من الصلاة والعكس للمكي، والدعاء عند دخول المنزل، أو الخروج منه مقدم على قراءة القرآن.

(٣) مراعاة جنس العبادات:

جنس الصلاة أفضل من جنس قراءة القرآن، وجنس قراءة القرآن أفضل من جنس الذكر، وجنس الذكر أفضل من جنس

---

(١) رواه أحمد وابن ماجة والترمذي عن أبي هريرة، وصححه ابن خزيمة كما في المنتقى رقم (٥١٣).

(٢) رواه النسائي والطبراني وأبو داود عن زيد بن ثابت كما في (ص ج ص) رقم (١١٢٨).

الدعاء، وجنس الجهاد أفضل من جنس أعمال الحج، بل بين أفراد الجنس الواحد:

فمثلاً «أفضل الصوم صوم داود كان يصوم يومًا ويفطر يومًا»[١]، و«أفضل الصدقة الصدقة على ذي الرحم الكاشح»[٢]، و«أفضل الشهداء من سُفِك دمه وعُقِر جواده»[٣]، و«أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله»[٤]، و«أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»[٥].

(٤) مراعاة الأحوال:

قال الرسول ﷺ: «إذا ضحك الله من العبد فلا حساب عليه»[٦]، ثم أخبر عن صفات من يضحك الله إليهم فقال:

«ثلاثة يحبهم الله ويضحك الله إليهم ويستبشر بهم: .....، والذي له امرأة حسنة وفراش لين حسن فيقوم من الليل فيقول: يذر شهوته ويذكرني ولو شاء لرقد، والذي إذا كان في سفر وكان معه ركب فسهروا ثم هجعوا فقام من السحر في ضراء وسراء»[٧].

---

(١) رواه الترمذي والنسائي عن عبد الله بن عمر كما في (ص ج ص) رقم (١١٣١).
(٢) رواه أحمد والطبراني عن أبي أيوب كما في (ص ج ص) رقم (١١٢١)، وذي الرحم الكاشح: المضمر العداوة في باطنه.
(٣) رواه الطبراني عن أبي أمامة كما في (ص ج ص) رقم (١١١٩).
(٤) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة عن جابر، وحسنه الألباني في (ص ج ص) رقم (١١١٥).
(٥) رواه ابن ماجة وأحمد والطبراني عن أبي أمامة كما في (ص ج ص) رقم (١١١١).
(٦) رواه أحمد وأبو يعلى ورجاله ثقات.
(٧) رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم (٦٢٥).

هذا في حالة السلم أما في حالة الحرب فالحال غير الحال، لذا وجب مراعاة الأحوال، والفذ من عرف أفضل الأعمال في مختلف الأحوال.

عوف بن الحارث ﷺ كان هذا الفذ حيث سأل النبي ﷺ في غزوة بدر فقال: يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده؟ (أي ما العمل الذي إذا عمله العبد في هذه الحال كوفئ برفع الحساب عنه)، فقال النبي ﷺ: «يغمس يده في العدو حاسرًا»، فنزع درعًا كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتِل.

ومراعاة الأحوال تشتمل على مراعاة مواهب المتسابقين وما حباهم به الله من نعم، (فالغني الذي بلغ له مال كثير ونفسه لا تسمح ببذل شيء منه: فصدقته وإيثاره أفضل له من قيام الليل وصيام النهار نافلة، والشجاع الشديد الذي يهاب العدو سطوته: وقوفه في الصف ساعة وجهاده أعداء الله أفضل من الحج والصوم والصدقة والتطوع، والعالم الذي قد عرف السنة والحلال والحرام وطرق الخير والشر: مخالطته للناس وتعليمهم ونصحهم في دينهم أفضل من اعتزاله وتفريغ وقته للصلاة وقراءة القرآن والتسبيح، وولي الأمر الذي قد نصبه الله للحكم بين عباده: جلوسه ساعة للنظر في المظالم وإنصاف المظلوم من الظالم وإقامة الحدود ونصر المحق وقمع المبطل أفضل من عبادة سنين من غيره)[1].

ونزيد فنقول:

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص (١٠٥).

أفضل الأعمال لمن غلب عليه داء الأمن من مكر الله تعالى والاغترار به: الخوف، وأفضل الأعمال لمن غلب عليه اليأس والقنوط من رحمة الله: الرجاء، وأفضل الأعمال للجُنُب: الاغتسال، وأفضل الأعمال لمن خشي العنت: النكاح، وأفضل الأعمال عند حضور الضيف: القيام بحقه والاشتغال به عن الورد المستحب، وأفضل الأعمال عند استغاثة اللهفان: الانشغال بمساعدته وإغاثة لهفته وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك، وأفضل الأعمال عند مرض المسلم: عيادته، وأفضل الأعمال عند موته: شهود جنازته، وقس على هذا.



قال رجل لابن الجوزي، ما نِمتُ البارحة من شوقي إلى مجلسك، قال: «لأنك تريد الفُرْجة، وإنما ينبغي الليلة أن لا تنام»، وصدق والله فإن نام الرجل وغرق في غفلته بعدما سمع كانت كلمات ابن الجوزي حجة عليه يوم القيامة، وهكذا كلماتنا من نفس النوع.

فاقرأ... وتدبر... واعمل..



الفهرس



هذا الكتاب

إلى من ضل الطريق .. و تاه في الصحراء ..
حتى أعياه التعب .. و أنهكه العَطش ..
و بينما هو كذلك .. إذ لاحت له في الأفق رايات
أمل فيها أسباب النجاة .. و إذا بالمنادي ينادي : اركب معنا
و يتودد إليه مطمئنا : لا أسالكم عليه أجراً
و يُلح عليه في شفقة : إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن
و يبشره مردداً نداء الله :
إن رغبت فينا أتيناك .. و إن ناديتنا سمعناك
و إن عزمت على قربنا أدنيناك ..
و إن ذرفت الدمع من أجلنا فيا بشراك ..
لَب نداءنا .. و الحق بركبنا .. و اسلك طريقنا ..
فقد سبقك في الميدان صالح المؤمنين ..
و لعلهم حَطوا رحالهم في الجنة منذ سنين ..
فتشبه بهم .. و قلد صنيعهم ..
اغرس نخلة العزائم .. و اروها بدموع نادم ..
تنعم بالثمار و بالغنائم ..
هيا .. أسرع .. لا تَتَوانَ ..
تقدم نحو خط البداية .. و انطلق معنا في هذه الرحلة .



١٨ ش مطر - أحمد حلمي - شبرا مصر
ت / ١٣٥ ٦٨ ١٠ ٠١٠ ٠٢ ٠٠٢
newandalus@yahoo.com


حصريات


مجلة
الابتسامة